

حنان محمد حنان



الندوة الشامية

فاصل

خالد محمد خالد

التدريس

أَتَمَّنْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ
"التَّصْنِيعُ عَلَى أَنْ نَعْرِفَ"

المقطر

للنشر والتوزيع

كل الحقوق
محفوظة

Copyright
All rights reserved



القاهرة-مصر
٥٠ شارع الشيخ ربحان- عابدين

Tel: (00202) 7958215
7946109

Fax: (00202) 5082233

Email:
elmokatam@hotmail.com

الإهداء

إلى النَّاسِ كَافَّةً...

فِي هَذَا الْكِتَابِ

٧	مقدمة
١١	الفصل الأول - الإنسان عَبرَ نفسه
٥٠	الفصل الثاني - الإنسان مادة حضارته
٩٢	الفصل الثالث - الإنسان سيد فكره
١٥٢	الفصل الرابع - التحديد والاختيار
١٧١	وبعد
١٧٥	كتب المؤلف

مقدمة

في صُحبة تفاؤل عظيم. بمستقبل الإنسان، كتبت هذا الكتاب .. وفي صحبة هذا التفاؤل، أعيش - دومًا - وأحيا ..
وصاحبكم من الذين يربطهم بالإنسان رلاء غير مجذوذ،
ولا محدود ..

وكل ما في الناس من ضعف، لا يصرفني عن رؤية
الإنسان الكامن داخل ذواتهم، وصفوفهم .. والكادح إلى
الكمال كدحًا فملاقيه .. !

صحيح أنني - أحيانًا - أبشس بما يفعلون ، وبما أفعل،
ويتراءى لي مشهد الفيلسوف الأغريقي "ديوجينز" حين صاح
من فوق هضبة عالية : "أيها الناس" .. فلما سارعوا إليه هز
رأسه أسفًا ، وقال: "لم أنادكم .. إنما أنادي الناس" .. !!

لكن الإنسان لا يلبث أن يظهر ، مزبوعاً على عرشه
القويم فوق كل هذه الفوضى .. حاملاً مشعله المضئ وسط
كل هذا الظلام ؛ فتذهب من فورها تلك الحشرات الكاذبة .
وتتطاير غواشي الكآبة واليأس أمام عضلة السامقة ..

وهذا الكتاب ليس قصيدة تحكى أجداد الإنسان وتردد
مفاخره .

إنما هو محاولة فى سبيل كشفه واجتلائه .

ذلك أن الكثير من مشاكل البشرية ، سرده تقطع
الأسباب بينها وبين الإنسان ، وفوردها عن العمل الدائب البار
من أجل اكتشافه ، واكتشاف مشيئه .

ولطالما أسلمت أمورها للبغضاء ، وللحفظ الغائيات .
وكثيراً ما كانت - ولا تزال - تبدو كجيش زاحف تاه عن
قائده ، وحيل بينه وبين معرفة خطته المثلى ، واتجاهه السديد ،
فتحبط ، وتشتت ، واحتراه الضياع .

ولكن لحسن الحظ ، أنها أدركت أخيراً ، أنها لكى تضع
أقدامها الراسخة فوق صراط قويم .. ولكى تكتشف حقائق
حياتها فى زمن وجيز ، ويجهد يسير .. ولكى تظهر بكسل

أغراض وجردها العظيم ؛ فلا بد لها أن تعود بتفكيرها جميعه
إلى الإنسان ..

ولقد فعلت .. وكأين من رائد، وفيلسوف ؛ ومعلم أبلي
فى هذا السيل أطيب البلاء ..

يَدُ أن الجهود التى تتطلبها هذا العمل الجليل، لا تزال
تطلب المزيد . ومن ثم فنبعث الذين يستطيعون الإسهام
والمشاركة، تناديهم وتهيب بهم كى ينهضوا، ويتقدموا..

وهذا الكتاب، جهد متواضع، يتقدم على استحياء لياخذ
مكانه بين الجهود الكبار، العاملة من أجل اكتشاف
الإنسان.. اكتشاف حقيقة.. واكتشاف مشيئة.. واكتشاف
الفرص الواجب توفرها له كى يبلغ كماله الميمور، ويدرك
مجده القادم..

وهو، أعنى الكتاب، يتبع الإنسان - عبر نفسه -، و- خلال
حضارته -، ويصيره فى - آفاق فكره -، وفى - اختياره وحرية -.
ولم أسأل نفسى قبل البدء فى المحاولة، إن كانت الظروف
مبياة بحيث أزاوها على النحو الذى أريده، أم لا.. إذ كان
حسبى أن ألبى نداء نبعث فكرية أمينة، وأقول كلمات

أحسبها لازمة ومجدية ..

لقد شغل "كونفشيوس" من أحد تلامذته هذا السؤال :

- كيف تؤدي واجبي تجاه الأرواح .. ؟؟

فأجاب "كونفشيوس" :

- عندما نتعلم كيف تؤديه تجاه الأحياء .. !!

وهكذا نحن .. لن نستطيع أداء واجباتنا تجاه كل شيء ،

حتى نؤدي - أولاً - واجباتنا تجاه الإنسان .

وعلى أن ندرك هذا جيداً .. فعلى إدراكه يتوقف كل ما

نرجوا ، نحن البشر ، من تقدم وارتقاء ..

ولعلكم الآن تتساءلون: وما هذا الإنسان .. ؟؟ وأين

نلقاه..؟؟

وهنا أستودعكم الله ؛ محلياً بينكم وبين الكتاب

خالد

الإنسان عبر نفسه

لهذا خلقنا ..

وسد أعطيا هذه لأرض، وهذا الوجود، وهذه الحياة ..
وثمة من الأعماق العتمة نداء لا يفتأ يتردد ويصيب أن واصلوا
السير دوما وارفعوا مراسيكم وأبحروا إلى العرش العظيم ..

لعرش العظيم .. ؟؟ وماذا يكون ... ؟؟

لظالمات تدنى لنا في ثمادح شئ في الأرض تارة، وأخرى
في السماء خارجاً عن مرة، وكانت في مرة أخرى

وفي كل هذه الاعتمالات، كان القلوب العصيم الدكي
بدفع خطاه. وبشر فبتنا قوى الاستشراف إثارة عيمة واعية

سيرنا مع القدر، ومع الخطأ، ومع الذكاء ..

زاملت اليأس، وزاملنا الرجاء ..

دقنا مرارة الإخفاق، وحلاوة الظفر ..

عشنا على السهوح، وتذربنا القمم ..

واحصنا الفجائع، وعانقنا المسامح، وسرنا على الشوك

حفاة، وعائنا الصنيع عمرة ..

ومى كل هذا وذاك. كانت راية الإقدام تخفى عالية، عالية.
معلنة وجرد قافلة تحتدم شوقاً وتضرم رغبة وتتفجر غناء،
وذكاء، وعزماً ..

وكان أعظم ما فيها، وأروع حصائنها، الشوق .
بالها من كلمة ممتلئة بأسلة - هذه التى نلقبها اليوم دون أن
نلقى لها بالاً .. !

'جل . كان الشوق رائدنا، راحلنا . ومن كل طفر
عظيم يُتاح لك تحقيقه، كان يسعث شوق جديد لطفر قادم،
وتغرّونا غطة جديدة بمشولات نالية ..

ولكن، إلام كان هذا الشوق العظيم .. !

لم ندرى، وإن كنا نُحِسُّ ..

لم تكن نعلم، وإن كنا نُحْسِسُّ ..

حتى اشتق ذات يوم من موكبنا الصاعد عمالقة تُرى
فيهم الأسياء الذين يُقبَّبون وجرههم فى السماء فتلبسهم افدى
والمرقان

وفيهم الملاسفة الذين يتساءلون: كيف . ؟، ولماذا .. ؟
وفيهم الفناون الذين تُرجى أبا ملهم لرقينة سر الطعة
وذكاءها ..

ومسهم العلماء الذين أخرجوا حياة المجهول، وأسرَّ إليهم
الكون بقوانينه ..

وتفشَّنا من العجب ما نفثي ..

لم يكن عجبنا، كيف وُجد هؤلاء ؟.. وإنما كان
كيف وُجدوا فينا .. كيف خرجوا من بين صفوفنا ..
كيف حُفوا من طينتنا .. ؟؟

إنهم معنا على ذات الأرض التي نمشي جميعاً على
مناكبها .. وإنهم ليحمون مثلما يحمل ميراث جميع الأسلاف
الدين سبقونا. فكيف تفوقوا .. ؟ وكيف تأثروا ؟.. وكيف
اتخذوا طريقهم إلى السماء صاعدين .. ؟؟

وكان هذا الجسُّ، نقطة انطلاق عارم وبدأنا بمرآة
العرض العظيم الذي حُفنا نسلُغُه. وعرفت الشيء الذي يسوق
الشرق إلى لقاءه ..

ولم يكن سوى الإنسان ... !!

ومنذ ذلك اليوم - فيما أحسب - بلعنا رُشدنا، وبدأنا
نعرف كل شيء، حين بدأنا نعرف أنفسنا وذوَرنا ..
لقد كان ميلاداً جديداً لنا - نحن البشر - حين أدركنا أن
الأرض التي نعيش فوقها، تعمل، وتعمل كل شيء فيها تحت

زعامة الإنسان ..

هذا الإنسان الذى هو خليفة الله ..

القابض بيديه الماهرتين على شئون عالمه ..

هذا المتفوق الجسور .. بطل المآرق دوماً .. المتسمى

بالأهوال أبد .. الذى يبصر الطام الكامن فى القوصى الماثلة ..

والذى يقود مصيره إلى مشارفها العظيمة الواعدة .. !!!

هذا الكائن السس المعقد، البسيط المركب .. الخليل

اجبار .. صانع الحركة الداهمة لكل عقبة .. جاعل المستحيل

ممكناً .. !

ولكن هل عرفناه حقاً .. أم أننا لا نرى بسين أن

نعرف .. رمادا يا ترى وحدناه .. ؟؟؟

إن الطبائع النهائية للأشياء لم تُعرف بعد

والعلوم التجريبية نفسها لم تزعم لنفسها هذه المعرفة على

الرغم من الأسرار الكثيرة التى أذاعتها، وخصائص التى

كشفتها، والعواصين التى وصفت كتأثيراتها عليها، وعلى

الرغم مما تمتع به من تنبؤ ذكى واقتحام عظيم .. !

ذلك أن تلك الطبائع النهائية، ترتبط بأرليات أممت فى

البعد وفي الخفاء .. ووراء ملايين العصور، بل وراء كل تصور للزمان وللمكان، تستقر وتكمن الطبائع الأولى للأشياء، والتي هي أيضاً الطبائع النهائية لها ..

وقد اكتسبت الأشياء خلال تظورها المديد صفات تعرف كل حصر وعدد . بلايين القشرات تعطي حقيقته الكامنة، ومادتها الأولى .. وتكشف الأجيال المتسوفة من البشرية، من هذه القشرات عدداً مناسباً لذكائها ومندرتها.. وتصبح في رهو الاتصاف: "ها .. قد بلغت القاع" .. والقاع منها بعيد جداً بعيد. ١١

والطبيعة النهائية للإنسان مثل ذلك . قارة عظمى، لا تزال مجهولة، وما أرتينا من العلم بها إلا قليلاً .

ولقد ذهب علماء الدين، وعلماء النفس، وعلماء الحياة، بحرسون خلال تلك القارة الغامضة، ولا يراون يفعلون أما الدين، فقد رأى في الإنسان رأياً حقيقاً ..

فهو إذ لم تُنح له الوسائل التي أُتيحت للعصم، فقد بلغ بالإنسان شأواً عبقرياً بعيداً . وفي شمول لا يابه بالتفاصيل أعلى رأيه في لإنسان. فهو خليفة الله في الأرض . وهو الجرم الصغير الذي يطوى فيه العالم الكبير .. هو محلى مشبه

الله ومظهر عظمته واقتداره .. !!

واتصور الدينى حين يصل الإنسان بالله على هذا السط
الساخر: إما يُحرر تقدماً علمياً وفلسفياً. فهو يعترف صماً
بلانهاية الإنسان؛ لأن الله سبحانه لا يتهى .

ويجى العلم . علم احياء، وعلم النفس، وعلم وطائف
الأعصاء، فيصع الإنسان تحت مخبراته. وتَفْجأه أسرار وألعار
لا تُردن بانتهاء .

يقول العالم الذكور "الكسيس كاريل"^(١) :

"إنا لا نفهم الإنسان ككل .. ! إنا نعرفه على أنه"
"مكون من أجزاء محصاة. وحتى هذه الأجزاء بتدعتها"
"وسائلنا . فكل واحد منا عبارة عن موكب من"
"الأشاح تسير فى وسطه حقيقة مجهولة.."
"وواقع الأمر أن جهلنا مطبق.."
"فأعب الأسئلة التى يلقىها على أنفسهم أولئك الدين"
"يدرسون الجس البشرى ، تطل بلا جواب .. لأن "
"هناك مناطق غير محدودة فى عالمنا الباطن ، ولا تزال "
"غير معروفة .."

(١) كتاب "الإنسان ، ذلك المجهول"

"فنحن مثلاً لا نعرف حتى الآن كيف تتحد جزيئات"
"المواد الكيميائية كي تكون المركب والأعضاء"
"المؤقتة لسحلية ."

كيف تحدد المورثات التي تحتوي عليهما نواه البروصة "
"الخصية ، مخبرات التردد لدى يشق من هذه البروصة .."
"كيف تنظم الخلايا في جماعات من سقاء نفسها .."
"ما هي طبيعة تكويننا النفسي ، والسيولوجي .."
"إن العلاقة بين الشعور والمخ ، لا تزال لغزاً .."
"ولا تزال بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن"
"فسيولوجية الخلايا العصبية ."

"إسا ما رسا بعبدلين جداً عن معرفة ماهية العلاقات"
"موجودة بين احيى الأعظمي والعضلات ، ولأعضاء"
"ووجوه النشاط العقلي والروحي .."
"وهناك أسئلة أخرى لا عهد لها بمكر أو تنفي من"
"موضوعات اللغة الأهمية بالسنة لـ ، يساً أيا منتص"
"جميعاً بلا حجاب "
"فمن الواضح ."

" أن جميع ما حققه العلم من تقدم في دراسة

"الإسنان ما يزال غير كاف وإن معرفتنا بأنفسنا لا تزال"

"بدائية إلى حد كبير ..."

إن هذه السمات لا تعنى — طبعاً — أن العلم عاجز ..
لكنها تعنى أن الإنسان حقيقة ضعفة، وعالم كبير ، وأنه
ليس من البساطة بحيث تكفى لإدراكه تلك الجهود التى بُذلت
.. بل لابد من مواصلة مُصنية لمحاولات فهمه ، وكشف
حقيقته .

ولابد - أيضاً - من ترويض أنفسنا على تقبل الملاحظة
الموضوعية التى تجعل الإنسان عَرَصَة ومصرعها - والتى
نعطيا نتائجها أصدق صورة لحقيقة لإنسان .

إن الدين ، والعسم ، والفلسفة ، والفن ، والأدب . قد
أبلوا جميعاً بلاء صادقاً فى تمهيد حياة للإنسان وتعميد طرائق
.. أو غرّبوا إن الإنسان عن طريق هذه القوى قد وطأ أكثف
الحياة لنفسه .. وعن طريق هذه القوى قد جنى ذاته وأظهره ،
ولا يزال يُحليها ويُظهرها .

وإن كلمة - إنسان - لتبلغ من العظمة مبلغاً يجعل كل
إضافة لها لغواً ..

وتبلغ من الجلال مستغاً يجعل نعتة بالسوبرمان قُصُولاً

"السوبرمان" .. وصف مجنعه على الإنسان لنرضى به
جهلنا بحقيقة الإنسان ، ونعبر به عن آميات عريرة ، وإن تك
طية ، لمستقبلنا نحن البشر .

ولكن لماذا "السوبرمان" .. ؟؟

ماذا ، الإنسان الأعلى .. ؟؟

أولا يكفي أن يكون الإنسان ، وحب .. ؟؟

وهل وُجد الإنسان ، حتى نضع على الأعلى .. ؟؟

فى رأى أن الإنسان لم يتم بعد ظهوره . وهو حين يتم
ظهوره ، يحى منضم كل كماله .. ويصير وصفه بالأعلى ،
شيهاً لوصفنا الشمس بالمضيئة !..

ثم ن هذه بكلمة "السوبرمان" تكاد تدعنا عن حقيقة
الإنسان التى يحب أن تقلبها ونحزمها بكل ما فيه من أشواك
وأزاهير وتكاد تسيء إلى الجهود البارة العظيمة التى بُذلت ،
وتُبدل من أجل ظهور الإنسان .

إن ناس الدين عاشوا فى لعصر الحجرى ، والناس الذين
سيحيون بعد عصر البكواك والفصاء ، سواء فى التمجيد
والشكر .

والإنسان فى بدايه تطورها - على الرغم من جهه وعجره

وهو صاه لافل شأوا عن الإنسان القادم في نهاية التطور مع
سُوق مكاته ومثواه .

بل الإنسان القادم متضمن للإنسان الداهب وهو ابنه
وحفيده، ونتاجه .

من أجل هذا نولي وجوها في هذا الكتاب شسّر
الإنسان. الإنسان الذي يس أدبي، وليس أعلى .. والذي لم
يترك إلى جواره فراغاً ولا مكاناً لأي وصف مهما يكن سخفاً
وعصفاً

الإنسان الذي لا يستطيع أحد أن يحتكر الحديث عنه ..
لأرجل ندين ، ولا رجل النعم . ولا رجل المسفة لأنه
مكرر من هؤلاء جميعاً ، بل رحب تمدد ، وأصبح أبعاداً من العلم ،
ومن الفلسفة .

الإنسان الذي بدأ صهورده ولم يتم بعد والذي يتحسى
شيئاً وثيقاً ، سائراً غير نفسه ، طاوياً أعمان كياه الأرضي أو
الشيء بالأزلي على كل إمكانيات تفرقه واكتماله .

هذا الذي تحول بُؤسه إلى عظمة ، وردائه إلى فضائل ،
وعجره إلى قوة ، وانخطاطه إلى رفعة .

هذا الذي يصرع أمسه في يومه .. ويهتدي يومه إلى

مستقبله

هذا الذى عسى يتجنى فى سقراط وأفلاطون ، وعمر بن الخطاب ومساركوس أو ريليسوس ، وبيردا وغادى ، وهيجل وابن سينا ، وشكسبير والمعرى ، وأبشتاين وابن الهيثم ، وديكرت وابن رشد والفرايى . لم يكن يعنى أنه حقق بهذا التحلى كماله وإنما كان يعنى أنه يحتمل التعرف التى ستعزف ذات يوم، وإلى الأبد ، السمووية الكبرى والنحاس العبرى العظيم .!

أجل . كانت هذه العفريات كلها - عبات - يكتشف بها طسعة واستعدده ، ودرس عيها فطرته ، وبسبب بها وجهته ، ويختبر صلاحته .

وإيه لماص من يومه الموعود اليوم الذى يرفع فيه جميع أفراد نوعه إلى مسواه . اليوم الذى يصير فيه كل فرد، إنساناً . وتصيح فيه كل احصائى العظيمة التى تخلت فى عاقرة البشر مجرد طبيعة عادية لكافة أفراد البشر .!

هذا هو دور الإنسان ..

هذه هى رسالته التى من أجلها يعمل هذه هى النعمة التى استحق بها الرعامة على الأرض بما فيها .

هذه هي المخاطرة الكبرى الطافرة التي كتبها الله له ...
والتقى عندها بأسرار الكون مُسَخَّرًا بِأَمْرِهِ ، مُسْرَعًا إِلَى
مَشِيَّتِهِ

صحيح أنه كان ذلك الحيوان الذي يغطيه الشعر في
العابة ... والذي يحوب الأرض سالباً ناهباً، يبحث عن صيد
يسكت مُعَارِ جوعه ...

صحيح أنه تعلم ذات يوم تنظيم حياته من مخلوقات أدنى
مه وأصا ... وأن بعض أساتدته في ذلك الرمان ، كان
الكب ، والغراب ، والحمل ، والنحل ، والعسكوت ...!!
صحيح أنه عاش أدهاراً طويلة، بدائياً فقراً، لا تزيد مظاهر
حصارته عن الطروحات، وحبائل الصد، والرماح والمقاميع ...!!
بل صحيح أن أشهى وجبات طعامه كانت - ذات يوم -
تلك التي تتكون من اللحم البشري الذي أُنْفَسَ مَيِّوَأُوهُ ...!!
وصحيح أنه استعبد الرقيق ، فلما ترقى .. استبدل بالرقيق
الأجراء الكادحين ...!

وصحيح أنه شحذ لبقته مخاله وأصفاره .. ففما ترقى
استبدل بها الحديد والبارود ...

وصحيح أنه مارس السَّيِّ راعتصاب النساء ، فلما ترقى
استبدل بهما المخادنة والاحتيال ..!

صحيح أنه عاش صريلاً في أحضان الوحشة والفوضى ..
صحيح كل هذا .
وحق أكثر من هذا ..

ولكن ما ذلك جميعه ، وأصعافه معه ، بقدر على أن يخفى
عنا فضائله .. فضائل هذا الإنسان العظيم .. صانع المعجزات
مبتكر الثقافة .. مُبدع الفن .. مُسير التاريخ ..

هذا الذي ابشَق منه موسى ، وعيسى ، ومحمد ، وبودا .
هذا الذي صنع الحضارات العدة عبر آلاف الأعوام .
هذا الذي طهر في مصر القديمة ، وفي أثينا ، وفي روم ،
وفي بغداد ، وفي قرطبة وأوروبا . ألا إن الإنسان لم يَكْشِف بعد ،
إلا عن القليل من عظمتِه ، وإلا عن الأقر من مواهبه وقدراته
وإنه لكادح إلى أعراض وجوده كذحاً ، فَمَلَأَها
فلنمض معه ، لنظر كيف يمضي عبر نفسه وصَوْب

مصريه

لعل أجد خطوات في حياة الإنسان ، تلك التي اكتشف

فيها وجوده ، واكتشف مع وجوده حريته ، واكتشف مع
حريته مسئوليته .

وقد كان هذا الكشف من أعظم آيات حده ، وأدكى
أمارات فطرته .

فمن غير وعى وتفكير ارتبط الثلاثة في روعه - الوجود ،
والحرية ، والمسئولية - وهو بعد لا يزال يحبو في دنياه .

عندما ألقي نفسه وحيداً في أرض موحشة غامضة ..

عندما جاع ، وصاحت به أمعاؤه المُنْجِية ..

عندما شرذت أمه ، ورلزلت مكنته الوحوش الكاسرة .

عندما لَفَحَتْهُ سَيَرَاتُ البرد ، وبَعَثَتْهُ عاصفة تَلَوَّ عاصفة

عندها، تَنَبَّتَ ثَمَّةً وبُسْرَةً .. قَدَّامَهُ وَمِنْ وَرَائِهِ، سَاحِلٌ حَدٌّ

سواء

م يستطع أن يتصور نفسه وحيداً مُفْرَداً في كل هذا

الغضاء والْخَوَاء .. فذهب يقب وجهه ..

وكان عليه أن يثبت رماً طويلاً فيما يحسُّ أو يعرف

أن له مؤنساً ومعيناً .

ولكن عوامل إفتائه ، وتقويضه لم تكن لتضر ، ومن ثمَّ

وجد نفسه مُسْوَقاً للعمل وحده .. ولا بد أنه تهيَّأ المخاطرة

بادئ الأمر ، لكن الأهل الراحفة ألقت عليه مسئولية دفعها
ونادت كل قدراته لمقاومة وهكذا تحركت يده ،
ورجاله ، واحتشدت خلايا محه ، وأخذت مكانها على أرض
المعركة . وسُوح للمخاطر بقضته العامة ، فوُلت أمامه
مدعورة .. كل يومئذ حراً لأنه لم يكن ثمة دولة ، ولا قانون ،
ولا ملكية ..

وكانت التجربة هي دسه ، وقانونه .. يمارس الشيء بدافع
من فطرته ، فإذا استبد له نفعه أقل عليه وُصافه بن قائمة
الأشياء التي يتنفع بها ويعتمد عليها .

وكانت مسئوليته عن نفسه ، وعن سلامته وبقائه . هي
التي تحدد له مفهوم حريته . وهكذا ارتبطت الحرية بالمسئولية
في وجدانه من قديم بل وُجدت حريته كضرورة تقتضيها
مسئوليته أى أنه لكي يكون مسئولاً ، يجب أن يكون حراً .
والانقوص بقاء مسئوليته ، وأنهار بالتالى وجوده .

وكان هذا الرباط العطرى بين حرية الإنسان ومسئوليته
يقول: كان ولا يزال أصدق المراهين على أنه وُجد ليصمى
ويصعد ويسود .. ولكن كيف وُجد الإنسان مسئوليته ، ومن
أى الأنواع تلقاها .. ؟؟

إنها نعت من داته المتفاعلة مع ما حولها . أو بتعبير
آخر، بيعت من علاقاته بالأشياء المحيطة به ، راضى عملاً عاله ..
علاقته باجتهول الذى يملأ فؤاده رعباً ورهباً - حملته
مسئولية البحث عن كُنهه ، واستطلاع عيبه .

علاقته بنفسه - حملته مسئولية توفير حاجاتها الأساسية
من مطعم ومبسر وصيانة . كما حملته مسئولية العمل
المشترك بين أفراد السوع كنه ..

علاقته بالأحضر التى تسبب عنه فى صورة أعاصير ،
وتجربى حوله فى صورة وحوش مفترسة - حملته مسئولية
إعدادها لتكون مقراً صالحاً لطول الشواء ..

ولقد مارس مسئولياته فى كدح عظيم حتى ، ذا اطمأنَّ
إلى قدر كاف من السيطرة على بيئته ، ودعسم لزمن الطويل
علاقته بهذه البيئة ، شرع يفلسف هذه العاقلات ويحللها .
ومن ذلك الحين بدأت متاعه الحنية ، وهمومه ليلية

وبها لإحدى الممارقات التى تملأ حياتى فى الوقت الذى
يبدأ فيه معرف ، تبدأ كذلك تتعب .. ذلك أن المعرفة - أى
معرفة تبدو دائماً وكأنها ولادة بين مخاضين
فمسئولياتنا تلح علينا كى نعرف ..

ومعرفتنا تُولّد مسئوليات جديدة ..

والمسئوليات الجديدة ، تنجب بدورها معرفة أخرى .
وهكذا ولقد كانت تلك العلاقات تنتشر وتتمدد ، كلما قلب
الإنسان فيها بصيرته وكل فهم جديد لها ، كان يمنحه سلطاناً
عليها ، وفي نفس الوقت يمنحها سلطاناً عليه .
وهكذا بدأ الإنسان يواجه مأرق حياته كلها . ومس
عجب أنه بدأ كذلك في نفس اللحظة ولنفس السبب يُمسك
بجميع الزمام .. ا

كيف صعب المعرفة مأرق الإنسان ؟؟

قلنا إن موضوع المعرفة تمثل أول ما تمثل في علاقاته
بالأشياء ... وهذه العلاقات تنطوي على قدر كبير من
العموض والتناقض .

فهر - مثلاً - لكي يسيطر على انطلام ، يصطع شععة
النار، تضي له ظلماته المخيفة .. ولكن هذه الشعلة المضيئة
النافعة ، تتحول أحياناً إلى حريق يلتهم كوخه، ويدمر معيشته .
وهذا البحر الذي سمح له أن يطفو فوق سطحه في
زورق ذي مجداف وشرّاع ؛ والذي يطعمه من أسماك له حماً
طرياً ، يرسل إليه مَدّاً طاعياً يتلعه ويطويه تحسب

أمواجه، ووسط عياهه..

وهذا المطر - أيضاً - يهطل غثاً يربط صحراء الالهة ،
ويمسك أرضه المجددة . بيد أنه مرة أخرى يسيل صوفياً يقضى
على ما غمسته يداه ، وهو في حاجة إلى كمل ما حوته عبي
لأرض من مخلوقات وكائنات يدعم بها وحدة البقاء .. ولكن
شيئاً آخر يدعوهُ إلى التناقص والتناجرة ، سمه تارخ البقاء !
وهو لكي يحصن عبي حاجته من شيء ما ، يعطي ما
يساوي قيمته من شيء آخر . ا

وهو إذ يعادر انصيد إلى الزراعة ويصرح بك سيلفاده من
استقرار وسلام وإحساء ، إذا سالوضع الحديد بثمر تقيض ما
كان منتظراً منه .. الرق والاستعداد .. !!
ثم هو يأخذ بنظام التوريث ليترك لذريته الصعاف ما
يصور حيائهم . وهذا هو بعضى إلى خلق المباراب، وطبقات
كاملة، لاهية .

كل الأشياء حوله ذات وجهين وكألاً الحياة كلها
تعمل داخل الأصد د وتعتمد على التناقص والتناقص مثل حركة
قلب الإنسان به انقباض ، وبساط . ثم انقباض ،
واساط وبهدين الضدين تأخذ دورة لدم مجراها، وتقى

للكائن الحي حياته.. أو مثل العلاقة احساسية(+) فهي خطان متعارضان يتجان حاصل الجمع كله. لكنما حركة الحياة .. صلبة رأسية بالطول..، وصرية أفقية بالعرض.. تناقض دائم وتُؤد ...

وفي هذا التناقض واجه لإنسان مأرقه. وفيه أيضاً عثر على الكثير من وعيه ومن هنا دخلت مشكلاته مرحلة جديدة وصارت تمثل أكثر ما تمثل في :

- اكتشاف علاقاته الصحيحة بجميع لأشياء .
- إدراك المسفة الكامنة ، في تناقض المائل .
- السيطرة على عملية التناقض في كل مظاهرها، وتوجيهها دوماً صوب المصير الإنساني..
- إن احتياجات الإنسان لا تنتهي .. والتعبير عنها كذلك لا ينتهي

احتياجات كثيرة ومعقدة.. والتعبير عنها كذلك كثير ومعقد ولطالما أحدث ذلك، التراع والخلاف بين والحروب .
عماداً هو فاعل اليوم، ومدد بع رشده، ووجد وعيه ..؟؟
لقد توافر الإنسان على دراسة نفسه وعالمه مد وعامها .
وانتهت خطوط تفكيره المتوارسة حياء، والمتداخلة أحياناً إلى

مرحلة فكرية معاصرة تبدو لنا متعددة السمات، مختلفة الاتجاه.
فبعد تكلم "هيجل" معلماً فكرته عن التطور التاريخي أو
النتيجة المركبة، اتضح طريق صعب على الفكر الإنساني أن
يتجاوزه ..

رجاء لتفكير الماركسي ليعيد تخطيط الفلسفة الهيكلية .
وليوى رمام حركة التاريخية شطر التعمير الثوري . نافضا
كتنا يديا من المثاليات كلها معلماً أن علاقات الإنتاج دون
سواها هي التي تقرر مصير الجماعة الإنسانية، وتقود رحلتها
مؤيداً صراح الصقات باعتبارها أخطر إلى الشيوع المظم ،
وبالتالي إلى الثقافة السابعة من التفكير العلمي والمبدى ، والتي
تضع بدورها أو نكتشف أخلاق المجتمع الجديد .

ولكن تفكيراً آخر معاصراً ، يعلن أن أزمة الإنسان الكبرى
ماثية في تمزق صمومه ، هذا التمزق الذي يقضى إلى الحروب
والدمار ، ويشتر الأناية العيصة . ومن ثم فلا بد من وحدة
عالمية تحمل لواء حضارة عالمية واحدة تقوم على السلام ،
وإرخاء، والمساواة .. والمساواة في هذه الوحدة لا تتحقق
تلقائياً، ولا تثمرها الموعظة الحسنة، ولا التعبير الثوري .. وإنما

تجى بفرض رقابة اقتصادية، عالمية، فدرالية ..

كما أن السلام ، والرخاء لا يجيئان عَفْوَ الصدفة ، وإنما
عن طريق التربية التى تلقى الإنسان أنه ليس مواطناً عالمياً
وحسب بل هو أيضاً مواطن تربى ، بينه وبين كل عصور
التاريخ أواصر قرى ونسب .. ويتم ذلك كله فى نظام يعتمد
على الديمقراطية والحرية

* * *

ويهنص تفكير ثالث، مردداً من جديد صيحة مفراط
"اعرف نفسك" ..

ومشكلة الإنسان الأساسية فى هذا التفكير ليست
اقتصادية ولا سياسية، ولا اجتماعية. بل هى روحية خاصة ..
فالقحط الدينى والروحى الذى يعايبه لضمير الإنسانى
هو الذى يهدد حياته ..

لقد صعد العنم بالإنسان إلى القمة، ولكن أخلاقه أعادته
إلى السفح .. !!

إنه - مثلاً - اكتشف الطاقة الذرية، وبدلاً من أن يحول بها
أرضه المكشودة إلى فردوس يبيع .. ذهب وألقاها على
"هيروشيما" و"ناجاراكي" ودمرهما وأهلتهما تدميراً .. فتغير

القلب الإنساني، لا تعبير النظم، ولا تغير المجتمعات، هو مناص
الخلاص.. والأخذ بروح الدين، وبسبب شهوات الأنفس هما
سبيل النجاة ..

نعم . أن يضع الإنسان يده في يد الله.. وألا يجعل غرض
حياته التعبير عن ذاته، بل بكار ذاته.. وأن يندز نفسه لحقيقة
روحية سامية ..

هذا - وحسب - هو ما يفقده الإنسان اليوم لكي ينهض
ويلبغ كتابه أجله

وفي مكان آخر ، ينهض تفكير آخر لا يقول : "اعرف
نفسك" وإنما يصيح : "وحد نفسك" ..!

لكي يعرف 'نفسا' ، عليا أن يتأكد من وجوده ..
إن أعصيا العقل لمكر به، فأعيناه . وأعصيا العرائز
لشعبها قنمعاها .. وأعصنا لحواس لنطل منها على العالم
الموضوعي فعطلساها ..

إن الإنسان مرد . قل أن يكون مجتمعا . ومن حقه الكامل
أن يختار قيمه وطريقة حياته .. ومن وجوده المحض .. وجوده
الذاتي، يستمد معايير الخاصة .

ويرى هذا التفكير، أن مشكلة الإنسان تتمثل في أن حياته اليوم أشبه ما تكون بزقاق مسدود، تَعَثَّأها "صمائية زائفة" وتحركها "رتابة مُبَلَّة" وأنه - أى الفرد الإنسانى - يعيش مُعْتَلًا فى دور مفروض عليه، ويقصى عمره تائهاً وسط مخلوقات نائية .

أى أنه لا يعيش حياته، وإنما يمثلها ..

والخلاص إذن أن يدرك الإنسان أنه خالق نفسه، وأن يحيا فى نطاق "قَدْرِهِ الشخصى" الذى يصعبه هو لا "قَدْرِهِ الاجتماعى" الذى يريد له المجتمع .، وأن يحرر حياته من رتابتها المملة ودورها المصطنع ..

إن ماهية الإنسان أمر ثانوى بالنسبة لوجوده . أو هى أمر تدل للوجود ..

والمفهوم الصحيح للوجود، هو الاختيار .. وهو القدرة على تخطى الوضع المائل ومحاورته .

ويعلن تفكير آخر أن مشاكل الإنسان جميعاً، قد تسلمتها اليد البارعة، يد العلم ..

والعلم وحده هو الذى سيقود الإنسان إلى عاقبته،

والأحياء قد برهنت بعد الشوط الظاهر الذى قطعت على
حدارتها بحمل العبء كله والعلم سيجعل المشاكل
الاقتصادية كلها مباح ومسامح حين يقرر من الرخاء سالا يحظر
ببال

إب العلم الذى أحال الصحراء إلى مزارع .. والذى أنجب
من الأنعام أحرية سلاطات فدة تعطى الواحدة منها من اللبن
فى حلة واحدة ، مثلما كانت تعطيه شعور أو ثمانون .
والذى أخرج من القول السودانى وحده قراءة مائتى موع ما
بين عداء ، وكساء ، ودواء . والذى بسط يده إلى انقطب
التحمد ، داعياً إياه إلى الاستسلام كى يستثمره ويرعه ..
والذى أمرل كثيراً من الأمراض العصبية عن غروشها الباغية ،
وخفف سعة الوفيات ..

العلم الذى عكف على العقل الإنسانى ، وعنى النفس
البشرية وبدأ يكشف أسرارها . ويسر غورها . والذى صعد
بالآلة وبالصناعة إلى دروة العمل والإنجاح .

العلم الذى طار إلى القمر ، ثم جاوز القمر إلى الشمس ..
هذا العلم هو الذى يحبس النسم الشافى لكل متعب الإنسان
ومصاعبه ، وهو الذى سيقوم بتصوير الإنسان تشويراً كاملاً فى

كل مجالات الحققة، والمكرية، والاقتصادية، والاجتماعية .
ومشكلة الإنسان إذا كانت له اليوم مشكلة، هي ضعف
ثقته بالعلم وضعف قدرته على مسايرة العِسم . ولكن حتى
هذا الأمر، سيتولى العلم علاجه، ويُرفع الإنسان إلى مستواه
فى يوم قريب..

هذه تقرب - هى المسمعات المعاصرة التى تعمل فى خدمة
الإنسان ، وهذا هو منطقها .

مأين الإنسان من كل هذه الفلسفات ...؟؟
إبه خالقها جميعاً ، وبُدعها .

ولقد كانت كلها متقرة فى رُوعه وهى فطرته منذ أيامه
الأولى على هذه الأرض وفى أشد عصوره الماضيات جهالة
وحُكة

وإبا لنستبظ من هذه الصاهرة رأيا بحسبه صحيحاً .. هو
أن شر ما يصيب البشرية من تمزق وحلاف، إنما يحدث يوم
تعزل الإنسان عنها وتساها .

فمعظم نزاعب الدينى ، والعلمى ، والمذهبى ، كثيرا ما
يسببه أننا نعامل كما لو كنا عوالم شتى متافرة . ولنا صفاً
واحداً توسطه حقيقة معرومة هى الإنسان ..

إن الفسقات ومناهج التفكير التي عرضناها آما تمثل كل
ألوان الصراع العكري القائم في مجتمعنا الإنساني اليوم
فلنظر الآن كيف أن 'الإنسان' يتضمنها جميعاً، ويتطلب جميعاً
كحاجات أساسية له وحياته منذ وعى نفسه، وليس اليوم
فحسب

والترعة الروحية مثلاً، تعمل في الوجدان الإنساني من
قديم عهده، كما تعمل في وجدانه من قديم، قيمة التركيز
على وجود وقيمة الإنتاج وفاعلية علاقاته، وقيمة العلم
والتجربة .

كيف حدث هذا .. ؟؟

فلمحصها جميعاً ، واحدة واحدة ..

لقد أحسَّ الإنسان قديماً، وقديماً جداً، حاجته إلى الدين،
فذهب يتكشفه .

وقد تدور كلمة - يتكشف - هنا، انحرافاً وتحديفاً

قد تكون عميرة المصمم لدى أولئك الذين يرون أن الدين
هو الذي اكتشف الإنسان ، ولكن الحقيقة هي ما نقول: إن
الإنسان اكتشف الدين .. ولكأنما احترت الحكمة الإلهية له

هذا الطريق، ولسوف نوضح هذه النقطة في فصل قادم
والآن نصُرب لما نقول مثلاً، تقدمه ل وثيقة لا نكذب هي نأ
إبراهيم في القرآن الكريم

وإبراهيم - كم نعم - هو الأب الروحي للديانات
الثلاث اليهودية، والمسيحية، والإسلام .

لقد رأى إبراهيم القمر بارعاً يتلألاً، وكان آتد يبحث
عن رب يعبد . ويشع بعادته حاجة ملحة في نفسه، ويملاً
فراعاً أضى وحده قنقاً وخوفاً فأشار للقمر الذي بهره
نوره، وقال : ﴿هذا ربي﴾ ..

ولكن القمر أقل . وأدركته الليالي التي تحتق فيها ضوءه
ويتحول إلى مُحاق . فهير إبراهيم كتمه آسفاً .. وقال
﴿لأجِبُ الْآفِلِينَ﴾ ..

رائحه صوب الشمس، فلما رآها نارغة، قال ﴿هذا ربي .
هذا أكبر﴾ ..

فلما أفلت ، قال يا قوم إني برئ مما تشركون ..
ومضى إبراهيم يبحث عن ديه، بل يبحث عن ربه وإلهه .
وإنه ليتصرر الإله كسلاً مطلقاً .. ولقد ابتغى الكمال في
أقرب مظاته، هو القمر المضيئ . ثم في الشمس المشرقة باعثة

اندفع ولحياة حتى إذا اكتشف حاجتهما إلى الكمال صرَّ
عليهما بالبربرية .

ولم يكف إبراهيم عن بحثه واستشراؤه، لأن حرجه في
أعماق نفسه السعبة تحفره وتدفعه - وإبراهيم في بيثته وفي
عصره، كان يمثل أعنى ما سبب الذكاء الإنساني

انظروا طريقته في البحث عن ربه ..

إنه مع كونه مُحبباً عادلاً، يبحث بحث فسوف حر
يفتش في الأسماء، والسحار، والبروع وبين الخصب
والسماء، حتى إذا لم يجد في الأرض ما يمثل صورة الكمال
لأهلي عبده، توجه إلى اسماء ويركز بصره على كبر
أجرامها.. حتى إذا ما تحقق له مثله الأعلى، يعص عقبه وقببه
من المجسمات جميعاً . ويشير إلى السر الأكبر الكامن في خاء
وفي الكون، ويهتف وقد وجد يقبه :

﴿يَسٰى وَجْهِيْ وَجْهِيْ لِلَّذِيْ فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ﴾

مَنْ هَذَا الَّذِيْ فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ ؟؟

ما صورته ؟.. ما مشهده ؟.. ما مكانه ؟..

ذاك شيء لا يشعبه الآب . إني يعبه وجود الرب القدير
يكامل الذي يحلأ فرع بسبه الضعة، والذي يفسر وجوده، ما

فى هذا الكون العجيب من آيات يثبت ..

ولقد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام، كما جاءت
من قبله مواكب الأنبياء والمرسلين .. وقامت الأديان
والشرائع، وسار على الأرض آلاف من القديسين والحنفاء،
فما رادوا فى الجوهر شيئاً عن رؤية إبراهيم

هذه الرؤية التى راملت الإنسان من فجر تاريخه شعوراً
مُبِيحاً، وهُتافاً دائماً يُسَوِّى فى أعماقه والتى أجداد إبراهيم
إدراكها والتعير عنها .

وكما أحسَّ الإنسان حاجاته الروحية والتمسها فى الدين
أحسَّ كذلك حاجته إلى التركيز على وجوده .
لقد ولد الإنسان فى مهيد وجوديته .. وحين بدأ يعى
نفسه كان يحقق وجوده المحض بطريقة تلقائية فطرية .

لم يكن ثمة أوامر، ولا نواه ، ولا قيود ..
م يكن يمثل حياته بل كان يعيشها كاملة غير منقوصة .
وكان قسره الشخصى صاحب الكسمة الأولى، والعليا فى
توجيه حياته . فليس هناك حكومة تخضعه، ولا مجتمع يصهره .
ولقد مكث طويلاً، يلور فى فلك وجوده المحض .. وحتى

بعد أن حشى العرلة على نفسه وعلى كيانه، ونادته ضروريات بقائه ليندمج ويتفاعل، طلت فرديته أممية على حقوق ذاته ساهرة على دعم وجوده .

كذلكم أحسَّ الإنسان في طفولته للبكرة حاجته إلى تنظيم إنتاجه . وأحسَّ - ولا أقول وعى - أهمية علاقات الإنتاج بالإنسان بالنسبة لمصيره . وإن الطريقة التي كان يسرق بها الإنسان الأول بين الملكية العامة لتكاد يبهز الأبواب عما تكشف من إحساس ذكي بأهمية علاقات الإنتاج .

والإنسان في ذلك الدهر الأوّل كان يقدر الملكية الخاصة ولا يسمح قط بالافتيات عليها . وبلغ من ارتباطه بها أن كان يأخذ معه إلى قبره بعد موته، حتى الروحة باعتارها مكاناً له . كانت تفقد حياتها حين يموت روجها ونأخذ مكانها إلى جواره في القبر بين ممتلكاته الخاصة .. !!

هذا الولاء الصارى للامتلاك لا يجد له أثراً حين تغادر الأشياء الخاصة إلى المنافع العامة كالأرض مثلاً .

فالأرض عند ذلك الإنسان كانت كالماء والهواء لا تُسَخَّر ولا تُمَسَك، وهى مِلْكٌ لكل الذين يعيشون عليها ويعملون فيها . وليست الأرض وحدها ، بل والقوت الذى يخرج منها .

وكم بأخذنا العجب ، حين نعلم أن الإنسان الأول وضع
لنفسه ولجماعته تقليداً . ألا يهرب طعامه إلا بعد أن يقف
خارج كهفه، ويصرح مدوياً بطريقة خاصة يدرك كل من
يسمعها أنها دعوة إلى طعام .

واعتز الإنسان البدائي بهذه المشاركة في الأرض التي
كنت الوسيلة الوحيدة لإنتاجه عندما وجد أنها تتيح لأفراد
الجماعة علاقات ودودة لا أنانية فيها ولا براع .

ومن النقايا المشهورة عن ذلك لسان القديم ، لتفي
الفرديسل ولاس "بعض منها في مريك اخوية قنار"^(١)
"لم نجد بينهم قسراً، ولا محاكمة سوى الذأى انعم الذى"
"يعبر عنه أهل القرية تعبيراً حراً "

"فكل إنسان يحترم حقوق زملائه احتراماً دقيقاً "

والاعتداء على هذه الحقوق بسر ونوعه أو استحيل
"إن الناس جمعاً فى مثل هذه الجماعة متساوون تقريباً .
كذلك التقى "هرمان ملصيل" يقوم آخرى فى جريره
"ماركسلس" فقال عنهم

"أنشاء وجودى بين قبيلة التاييى لم يقدم أحد قط"

^(١) كتاب "قصة الحضارة" تأليف هيررانت

"للمحاكمة بتهمة الاغتداء على غيره من الناس، وسار"
"كل شيء في الوادي سيراً هادئاً متسقاً على صرورة"
"لا تجدها مثيلاً في الجماعات المسيحية مهما انتقيت منها"
"خيرها ، وأصفاها ، وأتقاها "
"وإن في هذا القول مـى لجرأة أستيحيها، لأنه قول"
"صدق"

كذلك أحسَّ الإنسان قديماً جداً ، قيمة العلم وممارسه قبل
أن يعرف اسمه . نعم مارس الإنسان العلم التجريبي على
النطاق الميسور ..

لم يكن يملك المعامل ، ولا الأجهزة ، ولا المختبرات ، بل
ولا الوعي الذي يلاحظ به نظواهر ، ويستسط به القوانين،
ومع هذا أحس حاجته بمحاولة العبث، وعبر عنها في حدود
طاقاته، ومضى بكتشف ويستخدم، فاكشف النار، واستخدم
الحديد، وما وقفت به القبة عند شيء واحد، بل كان دائماً
يحاور الأشياء إلى خير منها فهو - مثلاً - بدأ يربد النار من
الشرر المتفادف حتى بطرق حجراً بحجر وكان من الممكن أن
يكتفى بهذه الوسيلة مادامت تُظفره بحاجته من النـهب غير أن

هذه الوقعة صد طبيعته، وما دام قادرا على تصور وسيلة أفضل
فلن تهدأ منه حتى يبعثها ويخرجها إلى الوجود وهكذا يترك
الحجر إلى دوات تفدح لها النار، مضى يشكها، ويطورها
في دأب يشير إلى إصراره، العطري على اكتشاف الأشياء
والسيطرة عليها. واليوم، نصير لكل مظاهر التقدم العلمي
جذور في المحبوة التي بدأها الإنسان بتقديم نفوذ الحجر،
والرمي بالحلاع ..

وأحدث وسائل إطفاء الحريق اليوم، امتداد محاولته
الأولى، إطفاء النار بالنصير ..

وراء كل صاهرة حصارية، وكشف علمي، ملايين
محاولات، واختلافات التي يُعتبر كل منها أنرا لما قبلها، وسما لما
بعدها .

وإذا كان الإنسان الآن لم يدرك المعبرم الذي يدركه
أسلافه اليوم لكل من العنم واخلصارة ؛ فإنه قد أحسن في عمق
حاجته إليهما، ومارس كلا منهما ممارسة فصرية .

مارس العنم، كشى يسطر به على الطبيعة، ومارس اخلصارة
كمجموعة من الاستجابات تصور حاله إلى أرق وإلى أفضل .

إن الإنسان يحقق ذاته ويجورها دائماً.. والمستويات التي
عبر فيها عن استشرافاته الدينية، والعلمية، والفكرية تختلف
وتتفاوت لهذا السبب - أعني مجاوزة ذاته .

وكسر القاعدة التي لا تكاد تتخلف، والتي تسعى أن
تكون على وعي بها، هي أنه يسير عبر نفسه .
إنه يتلقى احتياجاته ويستجيب لها.. ويكتشف قدراته
ويعبر عنها .

ونفسه هي كل هذا العالم الممتلئ المقسم بالأسرار. علمه
النفسي، والعقلي عالم شعوره، وفكره ، وإرادته
لهذا يكون ظناً كئيداً له، وجهلاً واضحاً به، أن يسجد
في زاوية من زوايا وجوده المصيح المتراحم ويحضر كل
استشرافاته ونشاطه في انعكاسات هذه الزاوية وحده .
ذلك أن جوهر عمل إنساني، هو تحقيق الكيان
الإنساني، ودغم انشائه المستمر، بمحور اللاهوتي، حتى
يتمكن الإنسان دائماً من عملية التخطيط والتجاوز التي يتم بها
مراحله .

والكيان الإنساني متعدد الاحتياجات كما أسلفنا، ومن
ثم فلا بد أن نحظى بالتقدير والاحترام كافة استشرافاته الدينية،

والعلمية، والفلسفية، مدامت وثيقة الصلة بنقائها الفطري
ومادامت بمنأى عن الإضافات الكادبة للفتنة التي تطفلت
عليها عبر الزمن .

وهكذا نتلقى بالحفاوة سعي الساعين لتحرير وجودنا،
والساعين لإعلاء كلمة الله في أفتدنا، ولساعين لربطنا بحركة
التاريخ ربطاً يجعلنا سادة الإنشاح لاعبيده، والساعين لإرباء
مكانة انعم ، والداعين للاعتماد عليه في كل شئوننا .

ونحن سارك الحوار والحدس، بل والتزاع الفكرى بين
هؤلاء جميعاً بعضهم لبعض إذا كان تركير كل فريق منهم على
اتجاهه يعنى إبرار لمربا النهائية ، أو الممكنة لهذا الاتجاه . أما
حين يعنى هذا التركير التفرد والسطرة، بمعنى أنه وحده الحق،
رما سواه باطل وعرور . فائد يحس لنا أن نشك كثيراً فى
قيمة هذا الادعاء

لسا نحاول بهذا عقد صلح بين الفلسفات ووجهات
النظر الكبرى إنما يريد أن تركى فكرة تبلغ من اهتماما
أقصاه . هي أن الإنسان - كما أسلف - يسير عبر نفسه . نفسه
عالم محموء بالاحتجاجات وطبيعته النهائية لم تُعرف لنا بعد
حتى نتصيد مزاجها الأوحده .

ولد ، يتحتم جعله المعيار لكل عمليات تطوره وحياته..
ويتحتم احترام احتياجاته السابعة من أعماقه .

ولقد حَذِّق الإنسان الدرس من أقدم عصوره فواءم
مواءمة فطرية ذكية بين كل احتياجاته دون أن يقسم من
أجلها على ذاته .

كان يرسل الطرف في حشوع نحو معبوده. وفي نفس
الوقت يتابع محاولاته المتواصلة لمكشف والاستخدام اللبس
يسطر بهما على عائسه، وكان يكشف علاقاته بسطيا
ويُدغم وجوده - في ذات الوقت له يى فيه مجتمعه

صحح أن بعض مراحل تقدمه، تفسح الصريق مومسا
لمراحل أخرى جاء دورها لكن ذلك لايعنى تهدم ساب
بل يعنى تكامل الباء .

عبارة أخرى نقول إن الإنسان خلال تقدمه لايفقد
السيطرة على نفسه، وإنما يُعزِّرها ويطهر بالكثير من وجوده
إدراكه.. وهو بهذا لا تحيى إلا عن تلك الاحتياجات
العارضة انى كان لها دور موقوت، فيما يطل منشئ بالأحرى
التي لها جوهره وشائج وأسباب .

والإنسان لا يعرب أوصاف حلول، ولا يَقْفِلُ راجعا عند

منتصف الطريق . وإنما يذهب بعرائره وبأنبيائه إلى نهاياتها .
ثم يحاوزها إلى سبوك يتضمن أسباب كفايته فى مستوى أعلى .
و كما أنه قادر على تحويل عرائره الحيوانية إلى حاجات
إنسانية .. فسبوك قادرٌ على تركيب هذه الحاجات فى النمط
أو الأنماط الملائمة وعلينا - إلى أن يعمل هذا - أن نحترم
احتياجاته القائمة ..

إن الذين يحاولون وضع الإنسان داخل إطار فلسفى معين
يشبهون الذى يحاول تركيب أحجار الهرم الأكبر فى هذه العبرة
"مجموعة من الحجارة المرصوفة فى ارتفاع طوله . وقاعدة
عرضها..." !!..

ماهرم الأكبر فعلاً مجموعة من الأحجار، ولكنه سر ذلك
وحسب . بل هو أسرار وتاريخ، وحصارة، هو عظام حافل
بمعجرات العلم، ومتطلبات الروح، وعمل السواعد الشديدة ..
كذلك الإنسان لا يستطيع أحد أن يدّعيه لنفسه، لا رجل
الدين، ولا رجل العلم، ولا رجل الفلسفة ..

ومصايره ليست بيد مُعتَقِّده وحده، ولا بيد الفسفة
وحدها ولا بيد العلم وحده ..

إنما هى بيده .. بيد الإنسان العائش وسط احتياجاته ،

المذكر تبعات حياته .

وكما تألّق هذا الإنسان في قلب محمد والمسيح، وموسى وإبراهيم، تألّق أبصاً في قلب بودا.. وتألّق كذلك في قلب الفارابي، وابن رشد، وابن سينا، وأرسطو، وهنجل، وماركس... وتألّق أبصاً في قلب كوبرنيكس، وابن يونس، وجاليليو، ونيوتن، وأيشتاين، وداروين، وجابر بن حيان، وابن مسكويه وتألّق في قلب أبي بكر الرازي، وباسنيير وفي قلب المعري وشكسبير .

وهو في كل هذه التألّقات التي نصوتت مارلسا ومصادرهما لم يكن يتزّه أو يرجي هراعاً .. وإنما كان يقرّ نفسه ، ويقرّ عنها

كان يكشف عن حاجة في صميم كيانه ورسالته .
تدعوه للتخليق في كل هذه الآفاق جميعاً .. آفاق الحب
وفاق الشهادة .. آفاق الدين، وفاق العلم، وفاق الفلسفة .

الإسكان مادة حمارة

كان 'فولتير' يقول : "أريد أن أعرف الخطوات التي
سارها الإنسان من الممجية إلى المدينة" و - فولتير - بعبارة هذه
يصور حاجته من أدكى حاجات وعينا الإنساني .

فمعرفة كيف سار الإنسان ذلك الشوط المديد المتهك ،
وكيف عادر العابة إلى المدينة ، والوحشية إلى المحاصرة ، وفي
أية قافة مفتحة مكابدة اجتار الصعاب ، وتحطى الأهوال ،
واقترح المخاطر ..

معرفة هذه ، وحس إدراكنا لها ذو بال وحظر ، في
تقييم الإنسان واكتشاف دوره .

وإدراك يمكن هذه الكتب محالاً لتفاصيل هذه المعرفة ،
وتتبع خطوات الطريق جميعه ، فإنه - وحسبه هذا - سيكتفى
منها بالساعات التاريخية التي نسي في صدق ، كيف كان
الإنسان ، ولا يزال ، مادة حضارته.

لقد أضاف أن يربط بين المظاهر الحصارية، وبين الطبيعة ..
أوبسها ، وبين ظروف أخرى موضوعية .

فمثلاً، الحصارات التي قام على شاطئ البحر الأبيض،
وعلى شطآن أنهار النيل، والفرات ودجلة، والكجج، والدياروب
والسبب والتأثير . كثيراً ما يجعل هذه الشطآن مادة تلك

الخصارات .

وعن سرك بدهة أن هذه الخصارات م تكن شئاً ثوياً
داخل أصداف البحر ، وقيعان الأنهار .

ولصالح لبثت لمخيطات والبحار ساحة أو هادرة ، تصطيق
أمواجها آلاف القروى فى عواء مؤجس حتى أتاها الإنسان ..
وعنده صرَّعها لأعراض وجوده ، وعرس على صفاتها الهاجمة
مباح فيه وروائع حصارته

وكذلك صرَّع عصرنا هذا بعصر الآلة . ويطبق كلمة
'الآلة' فى فتور ، وحُيَاء ، وتشتت . وكأنما يريد أن نسي فى
صحتها أحافل شأن حائتها العصيم الإنسان !!

الحق أنى بهذه السطور أقرر بديهة معروفة .. وليس
أسوأ ما فى الأمر حاجتنا إلى تذكرها وتدبرها .. بل حاجتنا
إلى التوسل بها للدفاع عن الذكاء الإنسانى لدى هو فى
عصرنا هذا موضع التدر والاتهم .. !

أجل ، إن الذكاء الإنسانى الحدير مكن ثقة وكل حفاوة
وكل احترام يُتهم اليوم ، كما أنهم فى عصور سالفة مجرمه
القتل ، ولقضاء على الجنس البشرى كله .

لقد كان هذا شأن ناس معه فى عصر حسب . يد أنه

في عصرنا هذا يأخذُ الرُّقى حظوظه من هذا الاتهام .. !!
كلما اخترع سلاحاً جديداً .. كلما اكتشف من فاسقات
المعرفة والعلم جديد .. طار صواب الناس ، وقالوا : وداعاً
للحياة .. شهية ذكاء الإنسان وغروره .

والناس في هذه التطير معدورون، وملومون .
معدورون .. لأن الذكاء الإنساني في انطلاقه الجسور
يحطف أنصارهم ، ويفجأهم بالمعجزات التي ما كانت تحظر
لم يبال ، فيتركهم سُكاري ، وما هم سُكاري ..
ومملومون .. لأنهم لا يستطيعون عقوبتهم بعض النسط فتعود
إنهم بكل أسباب الثقة بذكاء الإنسان .

نهم يركزون أنصارهم على الأفراد ، والجماعات ،
والحكومات ، والمخترعات ، والأحداث وطبعي أنه من
المسور هذه القوى إذ احترم التفاضل بينها واضطرت مواربها
أن تنتهي إلى كارثة الختام ..

بعد أن يمسون الحقيقة الناصعة الفاعلة والسائرة وسط
هذا الشتات

أجل ، يمسون الإنسان .. !
وسيدو لكثيرين أن يتساءلوا: وما الإنسان ؟ أليس هو

هذه الأشياء التي سَلَفَت الأفراد، وجماعات، والأحداث . ٢٢
هل هو انفراد ؟ أم هو الجماعة أم هو التاريخ والحركة
الإنسانية الداهمة . ٢٢..

أم هو شيء خارج عن هذه جميعاً . ٢٢
الحق أنه لابد من تنوع التفكير الإنساني في هذه المسألة
قل أن يصير بحواب ؛ فقد احسنت أحكامه ، وتعددت
افتراضاته في سبيل الوصول لمن صاحب الدور الفعال في بناء
حضارتنا .

يخرج من بين الخصائص الطائفة ، والمجموع الصغيرة أفراد
يرتمعون في لأفق كانشموس هذا رسول ، وهذا عالم ،
وهذا فيلسوف .. ولا يكادون يطؤون على الناس برمالاتهم
حتى يلتفتوا وبفردوسهم إلى الطريق الذي يجب أن يصير
أثرهم في توجيه حوادث واستحار ، فعنهم دينهم المنعزول وحده
التاريخ ويرى الحدود التي يظفرون به عثر الأجيال ويتعرفون -
به عبيد من فلا يدحسوا رب في قبضتهم كأفراد أمماد .
- مثلاً سمع سم سقراط ، فتساءل من فرسا أين أمة
سقراط ؟ أين أثينا التي ظهر فيها وحقق في سمائها ؟

لقد فُتت أُمته ، وفُتت مدينته ، وبقي - الفرد - سقراط
يتنقل في وعى الأجيال .. بل لقد تحول إلى شمس بشرية ،
دارت في فلكها كواكب من البشر ونجوم ..
- ونسمع اسم نابليون ... رجل كتب في طهراته وهو
تلميذ صغير لافتة وضعها فوق مكتبه "يجب أن أكون جنرالاً" !
ومع مطلع الصباح كل يوم، كان كما يقال - يستنفس
في مَرَح صياني ، وبُض في جِدِّ طفولي . ويؤدي لها تحية
عسكريه ، ويصرح "يجب أن أكون جنرالاً" وأباً ما يكون شأن
هذه القصة ، فقد كان جنرالاً ، و ميرا طوراً ، وعارياً ؛ فأنحأ
ولقد ذهب يقود بهرديه جيشاً لا يتعب ، ولا يسأم ، ولا
يسهرم حتى التقى أخيراً بالجنرال يسير - على حد تعبيره -
فجمدته ثلوجه . وبدده صقيعه . وحين كَفَّ الفرد نابليون
عن العمل وتحف عنه خطه رجح التاريخ عن الطريق التي كان
سائراً فيها معه . وعاد يلتمس طريقاً أخرى هكذا تصورنا دور
الفرد في مغامرة نابليون ..

- وفي مستوى أعلى يتبدى لنا دور الفرد في رجل مثل
"ماركس" رجل حاذٍ الدكاء ، إعصاري الإرادة، كتب "رأس
المال" فحرك به المعرفة الإنسانية وغير اتجاهها ، وأثار في أعماق

المخطط البشرى مدًا ثورياً عالمياً .

ومن لمسلم به أن هذا الفرد بدكاته العاد ، بدأ يدفع
التاريخ منذ أن رسل بديره ، وهو بهذا يشير إلى دور الفرد فى
صنع التاريخ ، وبالتالي فى إنشاء الحضارة ..

- وفى مجال السياسة يشترئ أماما رجل ملاً الدنيا
وشغل الناس ، هو "بسمارك" ..

هذا الألمانى الداهية ، ماذا كان يصير ألمانيا ، ولا اتحاد
الأمم ، بل والتاريخ الألمانى كله لو لم يظهر هذا الفرد المنعم
دكء وحيلة - والذى يحمل إرادة لاتعرف انهيتم ، ولا
التردد ، ولا العجز .."

* * *

هذا مسطناً حين سهرنا دور الفرد، ويجذبنا بريق نضه لته.
كك نعود فسيهر نصياء آخر، وشئى مطلقاً آخر - حين
تأديب 'اجماعة' كاشعة عن كهائتها وسطابها .. عندئذ نتجه
صوبها ونكاد سرع ابرية من بد الفرد، ونسلمها إليها
فكل فرد مهما عظم دوره، واتسعت كهاته، ليس فى
التحليل الهائى سوى ثمرة بيئته ومجتمعه
- مستقراط - مثلاً - شأ فى مجتمع يتمتع بحرية سبعة فى

افكر والقول والعمل مجتمع يمارس الفلسفة على نطاق واسع،
ومع هذا قسمة فراع كبير بين تفكيره ووجدانه. فهو - أعلى
الاجتماع - يتحدث فى كل شئ ، ويلعب كل شئ ، ويتعقب
بالفحص والتفسير كثيراً من طواهر لكون والحياة . بيد أن
وجدانه يتحشع للأساطير ويبحث من الحجارة آلهة معبودة .
إنه يحس بيديها سامقة، أن الأرض ككرة ، وأن الذرة
تطوى على طاقة هائلة .

ثم يسقل من هذا الحس الذكى إلى الحشوع الصّارع
أمام آلهة الأولمب الذين يُداول عنهم من أساء الفراع والصراع
والتنافس ما يصحك ويشير ! والجمع يحسُّ هذا التناقص ،
ويتطلب من محل عقده أجل يتطلب رجلاً ذكياً يملأ الصراع
بين عقل الجماعة ووجدانها أو بتعبير آخر ، يزحف بعقل
الجماعة نحو عريضة القطيع فيها، ويتربع من حرافة الأرض التى
تقف عليها ، ويضع أمام كل أسطورة علامة استفهام صحيحة
وهكذا ظهر الناس على هد العمل ، وكان سقر ط .

- وبابلون .. ماذا كان نابليون .. ؟؟

إنه ثمرة حكومة الإدارة فى باريس من جانب .، واطقة
الوسطى "البرجوارية" من جانب آخر .. لقد انتدبته حكومة

الإدارة ، كفاءة عادية حممة عديدة . فما كشف عن كفاءة
عسكرية تلائم أطماع هذه الطبقة و تستطيع أن تخدم أهواءها ،
تنفذته البرجوارية الفرنسية، وسلطت عليه الأصواء، وتولته
بكل وسائل الدعاية، وصغت به الأبحاث التي جعلته بطلاً في
بصر ومن ثم ركب بالبرون ثبح الشهرة وسُخرت له كل
قوى دولته فصر ب بها ذات اليمن وذات الشمال .
- وماركس

لقد لتقى بشبهه في مجتمع تائر منطلق فمناطعة
ربانياً" التي نشأ بها ، كانت قد رحبت بحشوش فرنسا التي
ستتخذ أهلها من الإقطاع وتُجهر على السلطان المطبق الذي
يعيش به في الأرض فسادُ الأمراء الإقطاعيون ولكنها بعد
عشرين عاماً قاست حلاله قسوة الفرنسيين سبع في نهب
الضرائب من أهلها ، عادوا يعمرون وجرحهم سطر "بروسيا".
تم يعادوهم حين مرة أخرى إلى فرنسا بعد أن أدلهم من
جديد الحكيم البيروقراطي الاصطهادي في بروسيا

وكانت الأفكار الاشتراكية ترحف بل كان شح
لشيوعية - كما يقول "توفافر" - يهدد أوروبا ويهيم في
أفانها كل هذا قل أن يحط "ماركس" سرّاً واحداً في

الماركسية.

ولقد بدأ شاعرنا، يهوى الشعر وبعد نفسه ليكون أديباً ،
وكان عصبه في نادى شعراء .. ولكن روح الجماعة التى
بعثت بينها وصلاقتها بشورى تشد ، والأزمات الاقتصادية
اللاحقة ، والاصطهاد النوع الذى سلكه غيوم الرابع ، كل
هذا نوى زمام 'ماركس' إلى الفلسفة ثم إلى الماركسية نفسها.

هكذا رفع لواء الجماعة، ويخذ من المنطق الذى يؤكق
دورها، مثمناً وحدا من قبل، المنطق الذى يُجنى دور انحد
يُبد أن وعيا لا يثبت أن يتجه نحو مصدر آخر ، إذ يصير
لتسلسل الواضع ، والوعى المستمر فى حوادث التدريج وفى
حركته ، فبادى بأن صاحب اسور حقيقى فى تصور البشر
وحضارتهم إنما هو لتاريخ

- ففردية سقراط، ومجمعه، كاب عاجزين عن إحقاقه
وإبداع عقريته لولا حركة التاريخ التى كانت قد بلغت بأثينا،
وبالفلسفة فى أثينا مُسنوى عالياً شبح ظهور مثل هذه الموهبة
الشامخة .

وآية هذا ، أن "سقراط" لم يكن يمثل مجمله . بل كان

أكثر من ذلك ، يمثل الاستعداد لتاريخي هذا المجتمع
أو بتعبير آخر . كان يمثل الدور الحقيقي الذي يستطيع
مجتمعه أن يقوم به ، وإن لم يقم به فعلاً لسبب أو لآخر .
ولكى يوضح هذا نضرب مثلاً بحريّة العرب في جاهليتهم
إن الشكر الخارجي لتلك الجماعة ، كان يبعث على انقراض
بأنها لا تصح لعبير رعى الإبل ، وقرص الشعر ، وعبادة الأصنام ،
ومعانة الرياح العاوية غير الصحراء .

ومع هذا ، فقد كان استعدادها التاريخي الذي لم يكن
مطوراً ولا محسوساً ، ويؤهلها لأعمال بهرة سامقة . ولم
يكذب رسول الله اسلام يلصقها لمسات هادية حتى انضمت
أسرع من الضوء في تحقيق المعجزات !!

كذلك كانت أثبت .. كان استعدادها التاريخي مختلفاً عن
شكها الخارجي ولقد أدرك هذا سقراط الذي رعى حركة
التاريخي واستجاب لها .

صحيح أن مجتمعه هذا ، هو الذي أكرمه على محرم ما أن
يسحب من الحياة بجرعة من السم .. بيد أن هذا الحكم نتاج
اهوى الاجتماعي هي أمة سقراط ، وليس نتاج الرشد التاريخي
الذي ظهر فيما بعد ، وبعد أن أيقضه مموته أكثر مما كان يوقظه

في حياته .

- وبابليون كذلك ، لبس ثمرة شخصه ، ولا ثمرة مجتمعه ،

بل هو الابن الشرعي للتاريخ .

قد يكون اباً عاقباً ، فالتاريخ يحجب السيرة والشريرين

ويكفه على حال ، ابنه ، وثمرته .

والمنطق في تركيد هذا ، يسير هكذا .

لقد سجل نابليون انتصارات هائلة عُرف بها وعُرفت به .

وكان ناس زمانه وبعد لا يرون فرق حشة المسرح سواء .

ولكن هل كان نابليون قادراً على براعته تلك لو لم تكن

حركة التاريخ معه .. ؟؟ كلا .

لقد كان التاريخ هناك ينتظر نابليون - أي نابليون - أي

أن حوادث الماضي كانت قد انتهت في مسارها إلى نقصة

نسمع بل نسحت فنام معامر من سوع نابليون .. والتاريخ

كما يسعى أن نعلم ، كالجنم .

لا يعرف الخير والشر ، ولا يقول هذا طيب وهذا حبيث .

وإنما يعرف فقط ، هذا لارم لعمليت التطور ، أم غير لارم .

ونقد كان رُوح العصر يهتف بواحد من طرار "بودبرت"

ويُفتن به فتوناً شديداً .

كان التاريخ بحاجة إلى رجل يملأ أورب دعراً وقلقاً ،
ويعث نعروشها وامبراطورياتها ابادحة ، ويعمم بأية وسيلة
مفاهيم الثورة الفرنسية ، ويوقظ في الجماهير روح التمرد
والرغبة في التغيير .

وهذا رأيا بعض ليلاد لتي وطئها عارياً نستقله استقبال
الفاشين ، عن إحلاص وحب ، لا عن خوف ومُسايرة لأهلها
كانت ترى فيه مقدراً كبيراً ..

تُرى هل يقدر نابليون " أن يعود إلى عصره هذا . ٩٩
أعنى ، هل يستطيع أحد مهما تكن موهبه وقدرته على
المعاصرة ووجهه به أن يمشي دور نابليون اليوم ، يمشي في الأرض
عارياً .. يعطر بدولة ، ويتعشى بأحرى .. ؟!

كلا.. ولقد حارون هتلر أن يكونه ، فانهي كروية صاغة .!
لمادا .. ؟

لأن روح العصر مختلف وحركة التاريخ تتطلب نوعاً
آخراً من الرجال ، ومن لأحداث .. وهي - مثلاً - تؤخر اليوم
"عائدي" واحد على مائة ألف هتلر مجتمعين .. ا
- وماركس -

ماكان نوعه اشخصي ، وما كان مجتمعهم بقادرين على

معه هذا الدور الهائل لدى قام به لولا الحدث التاريخي ..
ذلك أن النعرق الذي كانت تعابه الرأسمالية ، كان لابد
أن يجد من يكشف عن أسبابه الدقيقة ، ويتبأ له بمصيره .
والمخاص الشورى - آشد - الذي كان يُرسل نُذره ،
ورهاباته ، كان لابد أن يجد من يُشّر به ويرسم له طريق
العمل الذكي الواعي ، اشارة هذا لم يكن ماركس "علامة
اجتماعية" تحمل سمات مجتمعها وبيئتها وحسب بل كان
"علامة تاريخية" تشير إلى مقادير للتاريخ جديدة توّشك أن
تأخذ دورها

.. وسمارك :

ماذا كان سره ، ومجتمع سيعطيانه ، لم تكن الظروف
التاريخية قد حددت ساعة الصفر للاتحاد الألماني وأسرت
إلى "سمارك" جميعاده .. ؟!

ولقد اعترف هو بهذا اعترافاً واضحاً في خطبة ألقاها في
الريخستاغ الألماني ، قال

'ليس بوسعنا أن نتجاهل الماضي ، ولا أن نصنع'
"الاستقل"

"وإن الناس ليبالغون في تأثيرى على الحوادث التي"

"عرفت - فقط - كيف أستعملها .."

ويكن لا يحظر سال أحد أن باستطاعتي صوغ التاريخ

"فما أنا بقادر على ذلك حتى بالاشتراك معكم"

"صحيح أنا معاستصيع مقومة العالم بيد أنا لاستطيع"

"أن صوغ التاريخ وعلياً أن تنتظر حتى تتم حوادثه"

هكذا ضرب الأمثل لوعيا الإنسانى حير يشعقه دور

الفرد فيؤمن به . ثم حير يشعقه دور الجماعة فيؤمن بها . ثم

حين يشعقه دور التاريخ فيؤمن به ، ومع إدراك الحق لدور

الفرد ، والجماعة ، والتاريخ ، وأيضاً مع حزمات سوققات التي

وقعب التفكير لاسابى عند كل منها الفرد، والجماعة،

والتاريخ فإسا يريد أن تتخطاها جميعاً، وتجاوزها. معشير أن

صاحب السور الخفى فى كل تقدمها وارتقاءها، إنك هو

الإنسان ..

أجل . ليس هو الفرد .. ولا الجماعة .. ولا التاريخ ..

ويكنه الإنسان .

وما يعود إليها السؤال : وما الإنسان .. ؟؟

ولعل من الخير أن أعترف بالصعوبة التي حُشِنَ وأنا

أصبح مفهوم هذا الإنسان الذي أعياه دلت أنى أحسنه أكثر مما أعرفه . وأستشرفه برؤيا احسن، أكثر مما أنصره برؤية العقل ولكن هذا لن يمعنا عن السير معاً صوب اكتشافه .

وأود أن أذكر أولاً، أن حلالها الفكرى حول دور كل من الفرد، والجماعة، والتاريخ، وإنما ينصم الرعة فى محاوره هدد كلها إلى شىء أقرب إلى الحقيقة إن لم يكن حقيقة ذاتها. ودكمه اشئ هو الإنسان ..

والخامر الحقيقى للدين يؤسوس نبيعة الفرد، وسيطون به الصورة، إنما هو فى الواقع، تكريم الإرادة الإنسانية والخاص الحقيقى عند يؤسوس بالجماعة، ويبيضون به البطولة، إنما هو تكريم التضامن الإنسانى .

كما أن الخامر الحقيقى للدين يؤسوس بالتاريخ، ويصعدون ابرنام فى دمه، هو تكريم التراث الإنسانى، وحركة الإنسان فالإنسان هو الرؤية الحقة لنا فى عالمنا الإنسانى هذا

ونحن لا نصاب سقوط من أمره ، واليأس من مستقبله إلا حين نعيب عنا حقيقة

وكأنى من فلسوف وعقري تعشاه اليأس هذا السب فالأشريق حين رأوا التاريخ حلقة مصرعة .

والراقيون حين صاحوا في الناس: "لا تتوقعوا من المستفل شيئاً" .. إنما ذهبوا هذا المذهب لأنهم لم يكتشفوا الإنسان ..

والفلسوف الشاعر "جوته" حين ينبأ بمسئل لا يبدى الله فيه اهتماماً بالجنس البشري، ويرى من الخير أن يعيد الخلق من جديد، إنما يعلبه اليأس على هذا النمط، لأنه لم يكتشف الإنسان.

وأرسطو نفسه، حين قال: "يا أحيائي .. ليس في الدنيا أحياء" ؟؟ إنما قالها في ساعات عمٍّ عليه فيها حقيقة إنسان، وكن اسير يعرلون الإنسان، ويسنون مكانه بين صفوفنا وعالمنا . كثيراً ما يفترسهم التشاؤم والقنوط .

ومن غلب أن الدين واجهوا الحياة بسأوفي خطوط التفاؤل والثقة والافتقار من الأنبياء، ولرواد، وقادة الحق والخير .. كانوا على وجدان دكي بحقيقة إنسان .

هذا الإنسان كيف تعرف إليه .. ؟؟ هل هو عس ؟.. أم هو شيء سوانا ؟؟.. أمر خارج عما . أم كامن فينا ؟؟..

الحق أني لأريد أن أعطيه معنى تجريدياً ، يعقده وجوده لمادى العظيم وبكى كملك، لا أريد أن أحصره في تلك معادلة الرياضبة التي يحعه حصلا بمجموعة من الكرسون، والتزوجين، والاكسجين واليدروجين والكريت والملح .

والخديذ...؟

وإس لأيد تعرفى إليه ملاحطة نطورنا الشرى المائل

إيه - أعى تطرر - بمصى داخل سرك مئى بتناقصات
ولعرائق مع هدا خئى نتائج دئما ، كما بر كدت مقدماتها
على حص عظيم من اندقه والتاسق ، وكما لو كان طريقها
ممهذ ، متلاحباً مترعاً بالحراقر .

ويعرب هذا مثلاً بعشه الآن كما عاشه أسلافنا جميعاً
فمجنمعا الإنسانى ، يعانى من الأنابه فى كل مكان ..
الأفراد يُقتل كل فرد نفسه ، ويضع قائمة مضاله من الحياة
كما لو لم يكن هك تخرون يعنى أن يكون شه منها نصيب
كل فرد ، لا يكفيه أن يبال حقه ، بل يريد ما ليس له بحق ،
بل وحقوق الآخرين جميعاً .

وإجماعات كذلك ، كل أمة وكل دولة ، مهما رعمت
لنفسها من مثل عالية تنجه بطريقة تلقائية صوب نفسها ،
وشعار كل جمعة - أى جماعة - هو "أنا أولاً ، وأب ثاب ،
والآخرون آخير"

وطبيعى أن ما تفصى إليه هذه الأدبسه من أثره وسراع ،

وحروب، بحرب اليهود الاسايية، ويصيبها بشر ما يمزقها .
رمع هذا، فاحاصل الهائي لكل تلك العمليات الرديئة
التعسة، هو التقدم نحو الخير، ونحو الحق، ونحو المحبة، والعيرية
والسلام ..

أجل، إن الطريقة التي يتحول بها الشر إلى خير تهرسى،
وأستشرف من خلالها الإنسان .

حين صاح "البابا إريان" عام ١٠٩٥ في مسيحي أوروبا
"إن الله يريد منكم أن تقانونوا عن ديه" وقرع بصيحته هذه
أجراس الحروب الصليبية .

كانت صحبه، وكانت تلك الحروب بكل أهولها،
جسراً عبرت عليه حصارة العرب والإسلام، وحصارة اليونان
اسى كانت مع المسلمين إلى أوروبا وتحوّل رربا الحرب إلى
مكاسب تفوق كل حسان وتقدير !!..

كما كانت سبباً حاسماً ومباشراً في الإجهار على
الإقطاع هناك .

وحين اكسح أوروبا عام ١٣٤٨ وباء الموت الأسود
ازدرد الآلاف والملايين في شراهة ماحقة.. ولكه سرعان ما
نكشّف عن خير مدهش فقد حق الأحداث التي كانت سبباً

مباشراً في إنهاء عهد الرقيق .

ويجمع كهنة أورشليم بالمسيح إلى صليب كبير فيكون
هذا يذناً بسوء محله وخلود كلمته .

ويأتمر لأشراف في قرش محمد لينتلوه . ويصصرونه
للرحيل عن بلده ودره فتتحول هذه الخوذة النضمة العاسية إلى
تربيع يسع حصيرة ثلأ م بين الشرق والغرب . وتندوى في
جسبات دعوة القرآن .

ف. أُنح وجور الإنسان . وأتصوره مصوراً حياً بكر
مكبات الحيرة ، ونكس أعراض وجود - يتوغل خطيب ،
ويصنع من آفاته مزية ومراجاً .

- ونسأ تعرفي إليه كذلك بملاحظة خيالاتنا .

كل خيالاتنا تصحكه غر الأحياء ، تحولت إلى واقع
رشيد أكيد .

تحيل يوماً ، أن بطير و صطع بعضاً في سداجة أحمدة ،
وحلق بها بصع ثوان ثم هوى .

وصحك يومها ، وسخرنا وتسرنا . وإذا الخيال الساذج
يتحول إلى واقع ويأله من واقع ١١

ونَحِيلُنَا أَنْ نَرْكَبَ الْبَحْرَ، وَنَتَّخِذَ طَرِيقَنَا فِيهِ سَرَّابًا، فَأَلْقَى
بَعْضُنَا فِي مَخْرَى مَاءٍ يَجْذَعُ شَجَرَةً وَاحْتَصَصَهُ، وَإِذَا يَجْذَعُ
الشَّجَرَةُ يَصِيرُ سَفْنًا كَالْجِبَالِ، وَيُسَاحَرُ الْبَحْرُ لَنَا، كَأَنَّهُ يَابِسَةٌ
دَلُولٌ ۝

وَتَحِيلُنَا "الْمَدَى الْفَاضِلَةَ" إِذَا هِيَ تَأْخُذُ طَرِيقَهَا إِلَى الْوَقْعِ
عَلَى أُمِّ نَسَقٍ، وَفِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ كَانَ حَيَالًا بَعِيدَ الْمَالِ .. ثُمَّ صَارَ حَقِيقَةً،
أَسْأَلُ نَفْسِي كَيْفَ حَدَثَ هَذَا، وَمَا مَعْنَاهُ .. ٢٩
وَمَنْ الِذِي كَانَ يَتَحَيَّلُ .. نَحْنُ أُمُّ الْإِنْسَانِ .. ٣٠
وَأَتَصَوَّرُ الْإِنْسَانَ كَمَا لَوْ كَانَ "أَصْغَرُ الْخَيْلِ" لِكُلِّ
تَحَارُبٍ وَتَصَوُّرَاتِنَا "

أَجَلٌ . أَتَصَوِّرُهُ قَدْ جَاءَ مُزَوَّدًا بِكُلِّ تَصَوُّرَاتِهِ
وَأُخْصِبُ الْأَمْرَ سَارَ عَلَى هَذَا الْمَسْطَرِ .. فَحِينَ وَدَّعَ
حَيَوِيَّتَهُ، وَبَدَأَ عَصْرَ إِنْسَانِيَّتِهِ، كَانَ يَحْمِلُ مَعَهُ حَصِيلَةَ كَثِيرٍ
مِنَ التَّحَارُبِ وَالْمَشَاهِدِ وَالْعَمَلِيَّاتِ الْهَائِلَةِ الْمَعْقَدَةِ الَّتِي شَهِدَ
تَرْكِيبَهَا جَرَاءَ مَجْرَءٍ. وَالَّتِي انْتَقَطَهَا جَمِيعًا "لَا شُعُورُهُ". وَاحْتَفَظَ
بِهَا فِي قَرَارِهِ الْمَكِينِ ..

وَأَنْ أَقْصَى نَقْطَةِ انْخِطَاطِهِ فِي الْمَاضِي، تُشِيرُ إِلَى أَقْصَى

نقص كماله في مستقل ، وإنه ليدفع كل القوى لى ملء يديه
 لتحقق بهج يكاد يكون كاملاً وممضلاً في فطرته لأرغيه ، وإن
 كان عقله الثرائى يكتسبه شيئاً ، فشيئاً لقد عاصر الإنسان قبل
 أن يعى نفسه ، كل أشياء الطبيعة حواله ، وآهـا ، وهى
 تكون ، وهى تحس وهى تترك وبصر خصائصها ، وتستمر
 كل هذا في ماضيه ، فمع به لعل تحرك فطرته لتعبر
 عن نفسها . بل عن العقل ذاته كان الأداة التى وجر بها صغته
 للمردوجة الملائى بغير به عن نفسها ، لتقل بن انباء خارجى
 تُسرره ومضمومت

فإن نسجت أريد يوم بن شئت وقلنا: إنه شعاع لكسـه
 فليس هذا ، لا لأن الإنسان الكس قد قد زامل هذا انشئت
 من عهد قديم

وإذا أشرد إلى شلال يحد من مؤه الهادر الصخاب ، وقلنا:
 سؤند من هذا اتدق كهرماء فأبصاً لأن الإنسان العائش فيها
 أبصر هذا المشهد على الصبيعة ذات يوم وأبصر الحرف والصياء
 يتدفعا من الأموح استفاضة فى غروم وجبروت

وإذا ستعسا عداً عن الطائرات ، وحققنا فى جو السداء
 بأحجة ، أو بوسائل نهت فى الساطة ، فسبكون وراءه .

الإنسان الذى شاهد عُبْر تطوره اسحق رواجف ترحف على الأرض إلى جواره، وفجأة، وبعد محاولات - فى عقبه الباطن كل أسرارها - رآها تبسط جاحين، وتذهب صاعدة فى السماء؟
أى أن ذاكرته تسترد اليوم على نحو ما . بلايين المشاهد والتجارب التى عاصرها وعاشها مع الطبيعة خلال تطوره الشديد المعنى فى لطول والبعد ويتولى عقده لواعى بطريقة ما، فصّ الإبهام والعموض عن تلك التجارب ارسية الراسحة.
وقبل أن يصرف عن هذه الكمات كما لو كانت وهماً طريفاً علينا أن نتذكر حفيظة مماثلة تتكرر كل يوم، ويراف اعلم بعينه ويلمسها بيده ..

تت هى الطريقة التى تتصور بها الأجنة فى الأرحام ..
فوقائع اسطور البيولوجى للإنسان، والسى اسعرق بلايين السنين منذ كانت الحياة خلقة. حتى صارت إنساناً. هذه الوقائع يكرها الإنسان، ويستعيدنها ويكررها مع كل حين .
فاجين - كما يقول علماء البيولوجيا - يبدأ خلقة، ثم يأخذ شكل الحلقة ، ثم هيئة السمكة حيث تتفهم بخياشيمه، لايرثيه.. لايرثيه . ثم يصير حيواناً ذا اربع، له ذنب صغير ، ويغطى جسمه اشعر . ثم يصير إنساناً !

نفس المراحل التي تَقْلُبُ الإنسان خلالها في بلايين،
يستعيدها في ستة أشهر لا غير، وبإصرار عجيب لا يملت منه
حين .

وهنا ألمح الإنسان الموجود في "لاوعيه" يمضي إلى الإنسان
الموجود في "وعيه" نُسْجاً معاً، الإنسان المتفوق على وعيه...!
نحن نقول إن العلم يعبر وجه الأرض، وبعد كشف الحياة،
وهذا حق بيد أن العلم نفسه لا يوجد إلا بمقدار ما يريد
الإنسان.. ولا تسرى الحركة في آلة إلا بمقدار ما يصنع الإنسان
فيها من حركة

.. وأساساً تعرف إلى الإنسان كذلك، بملاحظة العقرية
الإنسانية التي لا تجد لها سبباً، لافى حركة التاريخ،
ولافى تيار الجماعة، ولا في إمكانية الفرد .
انظروا ..

'تهوس' الأصم، يشق وهو لا قد لأهم أدوات لنس،
الحدث، تتحظى كل مناسيب العقرية والخلود
و عاندي " ذلك الحيل الصامر، العادي في ثقافته
ومصيره، يتحول بغيره ومقرله إلى قوة لاتعل .
و "الحلاح" يختص عقيدة، يُصلب من أجنها وتقطع أوصاله

على خشة نصب، وتز أعضاؤه عترواً عصوا ثم لا ينحني
عن عقيدته محسب بل يبارك قنليته ويقول عبارته
المأثورة: "انهم اعمر له لياهم مفعير بي هذا لاعيرة على
ديك".!

و"هري توماس داكل' لدي فصر عمرد كنه عسلاً مؤثق'
تعم سبع عشرة نعة . ويمكر به حمدا ولا يستصع - كما
وصفه هكسلي - ل برفع رأسه من كنهه كانت تحمله '
و"جماعة سدابه من العرب بقص صحراء قاحله تحضر
ديب رشت . وتمشي به محصرة عجب '

و"شعب مقرر رليل في أصفح روسيا التبصرة .
يتحول بصورة أدهت "ليين" نفسه منسب اثوره ومظميا، إلى
طوفان بشري داهم يشبه الأساطير

هذه العقربة التي شكدا تظهر مكتمة في الأفراد وفي
الجماعات .. من ورعها .. ؟ إنه الإنسان ..

مسجد وراء الاطلاقات الكبيرة لجماعه أساباً تاريخية قطعاً.
ولكن عقربة الاتصال، خشة في امتلاكها لكن عموم
انفور، شيء لا يمكن أن يحى إلا من إرادة الإنسان ..

عندما قيل لـ "ليين" إن ثورة عاتية، ملأب أرجاء روسيا،

لم يصدق، وظن في الأمر خدعة..ذلك أن التاريخ يُرجى
أسباب الثورة، أو الحركة الاجتماعية الكبيرة أما العقيدة التي
يُتمُّ بها العمل التاريخي هي إقامتها الإنسان
والظروف الخارجية لانضغ كل شيء .

ولعقريه الإنسانية انى أقول إيسى تُعرب بها على
الإنسان، تدعم هذه، فالنقل الحاسمة في تاريخنا تتمثل في بصع
قوانين هامة اكتشفها :

- كروية الأرض وحركتها ..

- قانون الجاذبية ..

- نظرية النسبية ...

- نظرية أصل الأنواع ..

هذه الكشوف غيرت معالم تفكيرنا، وحددت طريق
حضرنا، وأسهمت في كل ما جاء بعدها من إبداع وإختراع .
فهل سحبت عن سرها في الظروف الخارجية أيًا ما كانت
هذه الصروف ؟ حاولوا إن شئتم . أما أن، فلا أجد سرها في
شيء سوى الإنسان وبعد هذه الأمثلة والتهميمات، أستطيع أن
أصوغ الكلمات انى تُعرّف هذا الإنسان وتصور مفهومه .
أستطيع أن أقول :

إنه شيء يشبه "المُطَنَّق" في عالمه، وأرضه ..
 إنه "الوعي الكامن" في بوعه كنه ..
 أنه شيء يشبه عالم "المثل" عند أفلاطون .
 فالإنسان في هذه الأرض، هو المثال، الأفراد،
 وجماعات، والتاريخ كمن هذه، هي الصور والانعكاسات
 وهو بداية التطور الحي كنه ، وقمته ..
 بدايته، لأن "لأميا" شيء بها حبة لأول مرة على صبر
 الأرض، كانت - على بحرم - تتضمن الإنسان .
 وقمته، لأن الإنسان عدم نحى جاساً كل الكائنات
 حية التي كانت تعدته وتنفقه، بفرد بالسيادة، تمثلت في
 قمة التطور الحي في كوكب هذا، بيد أنه "قمة" بامية لأنها حبة
 وبه يذهب إلى أعنى دومحى حتى تعذب الأمة التي حملت
 نقد بدأ قانون جديدة مع بدء السموات والأرض
 والكوكب . ولم يكتشفه نحن إلا بعد أقل من ثلاثة قرون
 ولم يكن جهلنا به يعنى بعدام وجوده، كما أن جهلنا به
 يعطل عمله .
 والإنسان هو (القدون) الذي يحكم نحن البشر، ويصطبه
 حيات الإنسانية، ويرتب مقدماتها ونتائجها .

ونقد قلنا إن الصيغة الإنسانية لم يُكتشف منها إلا القليل..
ولسوف نكتشف الإنسان فبا شيئاً وثيقاً حتى يتجلى ذات
يوم كماله هذا هو الإنسان، باسمه لعالمه، وأرضه
أما عن صلته بآرثه وخائفه، فعلياً أن نقبل في حُجور
كلمة الدين فيه .

إنه ابن الله ، فيما عبّر المسيح ..
وعليقة الله ، فيما قال محمد ..
وإن الإيماء بهـ، لا يقتص من قدر الإنسان بل يرفعه
عالياً.. عالياً
فأموطن في دولة عظيمة . يرفع رأسه من رعاياها
ومواطنيها ، ويسند من عظمتها قبة وإقتدار
والإنسان، ليس "مَوْصاً" في عالم الله وحسب بل هو
حقيقته العظيم

* * *

وهذا الإنسان، هذا "القانون العميم" هو أصل القوانين
الموضعية في دنياء، ومن ثمَّ فهو فوقها جميعاً، ولا يتحكم فيه
شيء ..

وحسبنا أن سألنا أنفسنا :

لو لم يوجد الإنسان على الأرض، أكانت لقوانين
الاجتماعية مستوحدة ..؟؟

بالداهه ، لا ..

كانت القوانين الطبيعية ستمتص في طريقها، ولعمليات
البيولوجية سسأمتف سيرها. أما لقوانين الاجتماعية، فمن
كان سيرجدها، لولا الإنسان . 'و لولا بديله . ؟!

وهذا يعنى أن الإنسان سيد وجوده ؛ وسيد تاريخه ..

مامعنى أنه سيد وجوده . ؟

ومامعنى أنه سيد تاريخه ..؟

لسأ بالأولى ..

قنا إن الإنسان يحسن صيغة ملأى بالتصورات
والأسرار.. وأنه أحد على كاهله. أن يُخرج حياء الطبيعة
حول

وهو يهدا، لا يعمل بقوى سحرية من شؤى مسطورة واعية
وقنا: إنه ليس معنى مجردا من هو مصمود حتى لكن
إمكانياتنا وتساميه .. ودات وعيه حائة من جمعا أفرادا
وجماعات .

وكل عمل من 'جل تكريم الإنسان، وثقت فرص

اكتماله لن يكون له موضوع سوانا، نحن الشر
وكل ساعة إلى فرد إنساني واحد، نعى الإساءة إلى
الإنسان في مجلتي من بحالي ظهوره .
والإنسان المُبْعَم وجهه شطر الكمال العظيم، لن يبلغ هذا
إلا بقدر ما تلعب الجموع البشرية من سرع عقلي وأحلاقي،
 واجتماعي، فكلما كثرت الجموع للمتارة لتفوق المهيمنة
على مصيرها، كثرت معها فرص الإنسان في الظهور وقرب
يوم اكتماله .

وسيادة الإنسان على وجوده، هي السبيل لتحقيق هذا
البوغ للجموع .

والوجود الإنساني مُحكم الساء بشكل فذ، وهو يرفض
التصدع والانفصال ..

إنه ليس حقائق مشورة، ولا درأت. بل وحدة هائلة
مكتملة بنوسطها الإنسان .

فالمرء في حقيقته ليس فرذاً.. وإنما هو "تركيب
اجتماعي" أو تعبير أهدى ميلاً، هو "تركيب إنساني" .

يقول لنا العلامة الأستاذ "أميل برتراند" عس العالم
اسمائي الكبير "بلدوين" هذه الفقرة مدلاً بها على أن المرء لا

يعرف نفسه، ولا يشعر بها إلاّ عن طريق شعوره بالاجتماع ولا يقول^(١) :

"لقد اكتشفنا أن الصل لا يشعر برجرده الذاتي"
"إلا بعد معرفته بشعور الآخرين؛ فهؤلاء يمدون"
"في نظره مركزاً لردود أفعال ترتبط بحاجاته الخاصة"
"وهو المودح الذي يتخذه أساساً لتصور شعوره"
"الخاص .. وبعد هذا بفترة طويلة ، يصل الصل"
"إلى مرحلة تخيل فيها شعور الآخرين صقاً لما يشعر"
"به في ذات نفسه .."
كذلك يقل لنا عالم آخر هذه الفقرة :

"إن الامتراح من الشعور بالآخرين والشعور بالذات"
"في نفس الفرد يستمر طوال الحياة .. وإنا نعدّ"
"أفعالنا على تلك الفكرة التي تكونها لأنفسنا"
"عن آراء الآخرين فيما .."
"فالشعور بالذات، يشبه مرآة تعكس فيها صور الآخرين."
فيما كانت صلة الفرد بالجماعة تأخذ هذه البرابط الوثيق
فيان صلة الجماعة بجماعة أخرى تقوم على نسقٍ مُعادل .

(١) كتاب "الجماعات النفسية معاصرة"

أى أن المجتمع - أى مجتمع - ليس دائرة مغلقة، ولكنه موجة فى تيار.. وكل جماعة من البشر فى زمانٍ ما، ومكانٍ ما. إنما يتلقون من التيار البشرى كله تأثيراً مماثلاً لهذا السدى يتلقاه الفرد من الجماعة .

من أجل هذا آثرنا ألا نقول مع علم الاجتماع إن لكل فرد "تركيباً اجتماعياً" وقمنا : إن لكل فرد "تركيباً إنسانياً" ..
وحيث أكون كسرد، مركباً هذا التركيب الإنساني، وأحمل ميراث الإنسان الذى هو حقيقتنا الكبرى فإن هذا يكشف عن الحرية العظيمة التى أحملها بين جسدى. هذه الحرية التى إليها الحديث السوى القائل: "كل مولود يولد على الفطرة" بيد أن فرديتى هذه لاتعنى الانعزال، ولا الوجود الشخصى، لاسى تركيب "لاعصر" ونحن فى الحقيقة، نسلم دواتنا من النوع، فى ذات البرقت الذى نسلمها به من آثاء وأمهاتنا ..

أجل.. إن الآباء والأمهات، يمنحونا خصائصنا الشخصية.. والنوع، يمنحنا خصائصنا النوعية أو الشرية ..
وفى تكوينك الذاتى، وأنت بطاقة، أدلى النوع بدلو، واقتحم سبيح البذرة الأرى إليها. فإذا ذهبت تعيش فى وجود

متفرد : ففى أى رُجُودٍك ستعيش ٩٩..

وجودك الشخصى .. أم وجودك الكى .. ٩٩

إبه قد يدرك أنك تحيا فى وجود حقيقى حين تمنح
بى فرديتك، وتخرج حبء ذاتك ، ذاتك الواحدة .. يد أمك آتقد
لم تزد فى الواقع على أن أحدثت انقسامًا فى ذاتك، إذ
حاولت أن تجعل مركز الثقل فى أحد شقيها
أجل .. إنك اشد تحاول أن تشق الشعرة بصفين ..!! وإذا،
فمكان كل فرد من لوجود، هو الوجود الإنسانى، لا الوجود
الشخصى .. لأن الأول فصلًا عن كونه ينصمن الثابى، فهو -
قبلا - بحالنا الحيوى الأوحد

لا بد أن يصل كل خطوطنا بالإنسان ، ويكون دوماً على
استعداد لاستقبال مشيقتة والسير معه .

فالخير الإنسانى ، كامن فى النوع الإنسانى، وكما وثق
الفرد به وشائجه، ارداد عرفا مه، وانصاعاً به ..
ليس معنى هذا أننا نقول لمفرد .. لكى تُكوّن نفسك،
امتنع عن أن تُكوّن نفسك .

إلما نقول به . امتنع عن أن نُكوّن بعض نفسك واحذر أن
تنشق على ذاتك ..

إن في تكوينك "خلايا" ورثتها لك الشريرة كلها، وهي
تأخذ بك دائماً إلى موكبها .

وتحركاتك التي تبدو لك فردية.. هي قبل هذا اجتماعية،
لأن المجتمع أسهم في صوغ خروفها..، وإسبابية، لأن طبيعتك
التي مارسها تحمل أقباساً من التراث الإنساني جمعه
ولندرك جيداً، أنه في الوقت الذي نحاول فيه المروق من
المصمون الإنساني العام، 'ملاً' في العنور عسى 'نفسنا' نفقد
أنفسا .

إن حياة الحزين وأصوارها في الرحم تؤكد أن كل فرد
يحمل الطبع الإنساني كنه مركزاً أروع تركيز

فإذا كان الإنساني يكرر تطوره البيولوجي في كل فرد
على النحو الذي سبق ذكره، فإنه أيضاً يُحْمَل كل فرد تراثه،
ويصرغ فيه طبيعته، ويحده إبه بأوثق العرى حتى لا يكون ضاة
قاصة تختطفها الدثاب وحتى لا يدعده انقسط الوجودي،
ولا يرفع راية التمسيم أمام مسكنة العدم، وحسى لا يعجز ولا
يغنى...!!

الوجود الإنساني إذن، هو عالمنا الأمثل والحق. وبه يكون
الإنسان سيد وجوده. وهذا الوجود لا يخلق نفسه، بل يخلق

ولا بحرى رُعداء، بل نعايه . بيد أنها معاباه السَّاء الطافر اندى
يرفع طبقاً فوق طبق، لا معابة الكسير الذى تنهاوى أنقاص
البناء فوق رأسه .

وفى الوجود الإنسانى الذى يشمل حقيقة الخارجة ككلها
لا تَجِبُها حية الرجاء فى بحثنا عن الوجود لأن فرص تحققة
وافرة وباهرة .

وأيضاً، لانحشى العدم، لأن القصة ما بست قصة فرد
منفصل عن حقيقته . بل قصة الإنسان فى دوره العظيم الذى
لا منتهى له .

إن الانكباب على الوجود المردى، عزلٌ لبجهد البشرى
واحتباس له فى توقعة معتمة بسما لحياة داخل وجود إنسانى
مركواصرد، وتملأ يديه بقدرة لاحدود لها . وبه وحده يكون
الإنسان سيد وجوده .

والآن، ما معنى أن يكون سيد تاريخه ؟..
إن المفهوم التقليدى للتاريخ قد ولى مديراً.. ولم يعد
التاريخ مجرد سجل للأخبار، وابصولات، والخرائيم.. كما لم يعد
ذلك لمسرح القديم لمآورات السياسة وغزواتها :

إن التاريخ مفهومه لصحيح، هو الحركة الإنسانية
والشباط لإسائى قاضى. هو الوعى الإنسانى فى حركته الدائفة.
وقوانين هذه الحركة تقع تحت سيطرة الإنسان ولبس
العكس ..

وكل مرحلة تاريخية تأخذ مكانها خلال العمل الإنسانى
هى مخدقة للإنسان ، ولبت خالقة .
واحركة اتاريخية، ليست أكثر من مطهر رمنى للحركة
الإنسانية

والحدث التاريخى، لا تُجبه الضرورات التاريخية، بل
ا ضرورات الإنسانية.. لأن الإنسان هو القانون الثابت الذى
يجعل التاريخ عملاً واعياً وهادفاً .

ومن شَمَّ فالإنسان لا يمتنع لأبة خنبة تاريخية إلا إء
اعبرنا التاريخ قسراً إسائياً، يصوعه الإنسان بفسه، ثم يرتبط
به عن طريق قوانينه التى يلتزمها، ويحترمها.. أما ذون هذا،
فاتاريخ كعمل إسائى، هو الذى يمتنع لحنمبات إسائية
تقنصها طبيعة الوجود الإنسانى، ووظيفته

وإء والتاريخ عدنا .. لا يمثل التطور التدرجى لمكرة
الحرية كما يرى "هيجل" ..

ولا يمثل التطور التدريجي علاقات إنتاج، كما يرى
"ماركس" ..

وإنما يمثل التطور التدريجي بظهور الإنسان ..
والإنسان يُخرجُ حثه، ويحقق ذاته، ويسير عبرَ الرمس
بآماله وأعماله يسجز أغراض وجوده التي إن كان لها منتهى
فهو بعيد. جدُّ بعيد .

وهذه الرحلة الكادحة الداحمة التي يقطعها خطوة خطوة.
هذه الرحلة بكل علاقاتها، وعليها، ونتائجها، وحركاتها،
وإصرارها، هي التاريخ ..

والتاريخ إذن، ليس قسراً طارئاً ومفروضاً على الإنسان ..
وليس حتمية عينية فيه بل هو وعيه المدروس، وعمله المحكم،
وحركته المنظورة .

يقول ماركس وأجلر في مؤلفهم "الأسرة المقدسة" (١)

"يقول مثاليون صنع التاريخ كذا.. وسوف يحكم"

"التاريخ بأن.. والتاريخ لا يرضى بكذا ."

"على حين أن التاريخ لا يصنع شيئاً، ولا يريد شيئاً."

"وهو يرضى بكل شيء.. وعلى حين أن الإنسان هو"

(١) كتاب "كارل ماركس" تأليف لومبار

"الذى يصنع، ويحيا، ويريد، ويخلص..."

"التاريخ لا يستخدم الناس لغاياته الخاصة..."

"والتاريخ لا يعدو أن يكون الإنسان الذى تتابع أهدافه
وعاياته..."

هذه كلمات فاصلة فيما بيننا، وكل شرح لها فصول
وتكرار .

وإن تحرير الوعي الإنسانى من أحزمة التاريخية، وتحريره
من الحتميات جميعاً، يُشكل ضرورة قصوى .

وكما وضعنا فى اعتبارنا ، أن الإنسان وحده - فى
أرضنا - هذه - هو القيمة .. وكل ما عداه مما نعتبره قيماً، ليس
أكثر من تعبيرات ملأمة تعكس حقيقة الإنسان، وجوهره

أقول كلما وضعنا هذا فى الاعتبار، ربحنا الإنسان، وربح
أنفسنا، وأفرعنا فى دور حطاً أكبر من الفهم ومن الدكاء

قد أبدوا مبالغاً فى تمجيد الإنسان.. ولكنى من أكون
مبالغاً فى تصورى لحقوق سادته . وهذه الحقوق التى كلما
ازداد ممارسة لها، ازدادت مسهرته على بيئته، وفقدت الظروف
الموصية قدرتها على التحكم فيه، وفى تاريخه ..

وحقوق السيادة هذه، تقتضى أول ما تقتضى أن يتروا

لإنسان المكان الأول والأعلى بين شتى الظروف المشتكة،
والناقصات المتداخلة، وأن يكون رمام المبادأة في يده دوماً،
وفي تحفظ أو شروط .

وهذا ليس أمراً بمنه عليه، ولا تبرُّعاً بسقطه في كفه .. بل
هو حقه الطبيعي الصميم، الذي لا يشكل عرصاً من أغراضه
بل جزءاً من صميم جوهره ، وصميم ذاته

يجب أن يعبر دائماً ويسود، ذلك المبدأ القائل "نقد خلق
السبت من أجل الإنسان" وم تخلق الإنسان من أجل السبت"
فكل أشياء حياتنا الإنسانية .. وكل القوانين الاجتماعية،
والظروف التاريخية، كل هذه جعلت للإنسان، ولم يجعل
الإنسان لها ..

وإذن، فلا ينبغي أن يُصْحَى من حقوقه ولا من حرّيته،
ولا من سيادته بشيء لها ..

هكذا نتصور سيادة الإنسان على وجوده، وسيادته على
تاريخه .

ومن خلال سيادته هذه، ببصره وهو يشيد حضارت،
ويؤسس علمه .

فالإنسان كما قلنا، هو مادة حضارته ..
 ليست الأفراد، وليست الجماعات إلا بمعنى أنهم محلّ
 ظهور الإنسان ومركز وجوده ..
 لقد قامت حصارات كثيرة أسميناها بمناطق نشاطها
 حصارة الاغريق، والرومان، وأشور، والعرب، والعرب،
 والعراة ...
 ونقول اليوم إنها مادت . وبها لكذلك معان، بر كاب
 من عمل صوائف وجماعات ..
 أما الحقيقة، فهي أنها لم تَبْدُ ولم تُفَسِّد .. وبها تحولت،
 وعت، وتطورت ..
 ذلك لأنها من عمل الإنسان. والإنسان صامد، وبام،
 ومنطور .
 ومجالات تلك احصارات جميعاً من عمران، وكشوف
 وصاعة وعلم، لم يدركها العلم وإلى تطورت وصعدت
 تحيط للرتى وعلوم الفلك، ومن العمارة في حصارة
 العراة وكشوف الطب، والكيمياء، والطبيعه في حصارة
 العرب ..
 والفلسفة، والديمقراطية، والسن، في حصارة الاغريق

وانقذون، والعمارة ، والإدارة، في حصاره الرومان.

ومثلها في حضارة آشور، والفرس .

والفلسفة، وصناعة الورق والبارود في حضارة الصين -

كن هذه لم تُعْص، وإنما تطورت. لأنها تسير عبر الإنسان،

وتتطور خلال مصائره الصاعدة .

لقد أعطاه الله طسعة مُطبعة، بساحت له بأسرها،

ووضعت نصها وقوانينها في خدمته .

بل لقد سخر الله له الشمس والقمر والحجور مُسخرات

لأمره ..

وهذا، فهو - أي الإنسان - أحكم وفطن من أن تضطرب

الأمور في يده..أو تتهاوى عمارته وحضارته .

إنه لا يعمل بقوة ساعده. فلو كانت قوة العضلات هي

التي يصل لسبقته الحيوانات المهيولة التي هي أضعف منه بأس،

وأوفى قوة

ولا يعمل بكثرة أعضاده . وإلا لسبقته أضعف الحيوانات

والحشرات ولكن بطل الحياة هذا..الذي شق صفوف جميع

الكائنات في كوكبه..، وأطلق من بينها صاعداً..راشداً..ماجداً.

إنما يعمل بأمن ماؤهب، وأصل ما أعطى..

أنتعرفونه .. ؟؟؟

إنه عقله ، وفكره ..

ألا وإنه لحتم عينا أن نقف معه في فكره، لنظر، ونفقه،

ونعرف .

فلتفعل ذلك الآن ..

الإنسان سيد فكره

حما الإنسان طويلاً على يدى بارئه.. وتلقى المصحة
الكبرى من روح ربه، وبرز عقله ووعيه، فأعلن الله رُشده، إذ
رآه يتقبل فى شجاعة وغطّة، الأمانة التى عُصت من قبل على
السموات والأرض فأبى أن يحملها ، وأشفق منها ..

ومن ذلك الحين صار الإنسان سيد كوكبه.. وكتب على
نفسه، أن يحول أحاسيسه العاصية، وسيماته الباطنة إلى وعى،
وحركة، ومستقبل .

كتب على نفسه أن يحول عرائره الحيوانية إلى حاجات
إنسانية ..

كتب على نفسه أن يحول أسرار الطبيعة المصممة إلى عالم
يكتشفه ويشبهه

وملك - على حد تعبير هيجل - عريّة خلق ذاته .. ومد
وعى نفسه، شعبه أُمّان، كان لابد أن يشعلا .

أولهما : معرفة حقيقة جوهره ومصيره

وثانيهما . السيطرة على العالم الخارجى ونسخيره .

ولقد سبق أن قلنا إنه عاصر الطبيعة، ولَقَفَ مشاهداتها،
بعيرته، واستودعها عقله الباطن. ود برع وعيه، وانحت عقدة
لسانه بدأ يترجم دحيته العميقة ، وينقلها .

بعض تلك التجارب ومشاهد، ستقرت في أعماقه مبيّنة
مُيسّرة . فلما أراد أن يستعيد لها ظهرت الأداة المناسبة، وكانت
العلم ..

وبعضها كان مبهمًا وغامضًا، يحتاج إلى بحث الأسئلة
الكثيرة، وتقليب وجوه الاحتمال والنظر.. وظهرت لأداة الملائمة
لهذا، وكانت - الفلسفة .

وبعضها كان خارقًا ومعجزاً.. وظهرت الأداة الملائمة له -
وكانت - الدين

وعن طريق اللغة، مضى الفكر الإنساني بملأ كل هذه
المجالات ويغذيها .

وبالدين والفلسفة، شرع يحاول معرفة جوهره ومصيره

وبالعلم، مضى بسيطر على انعدام الخارجى كله .

بهذه القوى إدد - الدين، والعلم، والفلسفة وما انشق

منها، كالنفس، واللغة، والأدب - يعبر الفكر الإنساني عن ذاته..

تماماً.. مثل الطاقة في الطبيعة نعبّر عن بعضها بقوى كثيرة

كالكهرية، والمعدنية، والكيميائية، والحرارة، والإشعاع .

وكما أن القوى جميعاً، ليست في التحليل النهائي لها

سوى الطاقة نفسها . فكذلك القوى الفكرية ليست في تحليلها

النهائي سوى الفكر ذاته .

ونحن نعني بالفكر هنا - التجربة كلها التي عاشها
الإنسان عثر تطوره الطويل، ولايزال يعيش بكل م فيها من
لاشعور، وشعور، وإدراك ، وإهام

ولكن، ماعنى أن الإنسان اكتشف الدين ؟
معناه أنه اهتدى إليه، ذلك أن اكتشاف شيء - أولاً - يعنى
سبق وجوده . فإكتشاف الحاذية، وحركة الأرض يعنى أسا لم
مخفيهما، وإنما اكتشافا وحردهما .

ومعنى اكتشاف الإنسان الدين، اكتشاف حاجات دية
عميقة فى نفسه، ورثتها وأبغثها أحاسيسه العارمة لمحتشدة
خلال تطوره .

وحين مصر جيداً، هذه الحاجات ترى أن الدين يدعوون
الوجدان البشرى لفض يده من الدين على خطأ كبير .

ذلك أن الدين، ليس هو تسك الطقوس، والمشاهد،
والشعائر فحسب... إن هذه كلها هى الشكل الخارجى للدين.

أما بياب الدين، وحقيقته، فهو التطلع إلى اللانهاى أو
على حد تعبير "روبرت سبيسر" :

"الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الرمانسة، ولا المكابسة،

هو العصر الرئيسى فى الدين" ..

والإيمان بهذه القوى أو على الأقل، الرعة هى التعرف
إليها، شئ لا يتكلفه الإنسان، وإنما يسمت تلقائياً من تجربته
ونفسه.. والعلم فى كثير من انتصاراته لا يريد هذا الإيمان، أو
هذه الرعة إلا تنشأ .

فهو مثلاً - أعنى اعمم - يستطيع أن يجمع المواد التى
ينكون منها الكائن الحى، ويؤلف ييها. ولكنه لا يستطيع أن
يعت الحياة فى خلية واحدة هكذا يقول علماء البيولوجيا
أنفسهم. !!

وهناك أعداد هائلة من الأسرار العريقة التى تختفى وراء
الحركة العارمة للطبيعة، وللكون .

ولذا فالدين الذى هو نطع دائب إلى اللانهاى
واشعور الدينى الذى هو الإحساس بحاجتنا إلى التعرف بهذا
اللانهاى سيطلا على رأس دوافعنا جميعاً .

ووصفاً الدين بأنه قوة فكرية، لا يقتص من دوره شيئاً..
وحتى إذا أخذناه حسب تعريف الفلاسفة الإسلاميين له
بأنه "وضع لى يرشدنا إلى الحق فى الاعتقادات. وإلى الخير فى

السلوك والمعاملات ..

هيس غمة بأش في أن تكون نقطة انطلاق هدا ابرضع
اسيى هو فكر الإنسان ، إلا اعتمادا اختار الله رسله من الناس
أنفسهم ولم يحترهم من علم آخر ؟؟

ثم إن الإيمان بالله - وهو سبب الدين - يكون أقوم،
وهدى خير . مكتشف الإنسان نفسه حاجته إليه ، لا حين يُعنى
ويعرض عليه ..

وهذا - كما سنب في لفصل الأول - يترك لله إبراهيم
عنه السلام بحثه في البحث عن إيمانه ..

ينهزه صياء القمر ؛ فيقول : هدا ربي .

ثم يهزه نور الشمس ؛ فيعادر القمر إليها ، ويبادى : هدا
ربي .. هذا أكبر ..

ثم ينهى به تصوافه إلى أن الله لا يد أن يكون أعظم من
هذا كله .. وحسنه من علمه به ، أنه انتهى فطر السموات والأرض
وتطلع إبراهيم هدا يشبهه في الرمن الأول ، تطع الرجل
البدائي إلى الانتهائي . وإن كان تطع إبراهيم عليه السلام يمثل
مسبوفا من الوعي أسمى وأرشد ..

وهذا يصدق أن الدين تحرره الإنسان . لا بمعنى أنه اختراعه

ليرجى به فراع، أو بفصى به وطراً عارصاً.. ولا معنى أنه
حتراغ أول مختار، النفسى بأول معص، كما يقور فرشير في
سخرية عابثة ..

وكمه بحربة الإنسان معنى أنه انعكاس إحساسه العميق
بحالقه وبارئه، وحاجته التراسخة الأكيدة بربه العظيم، كما أنه
منجلى بشاطه الروحى الراحر وهو هذا سبطل جبراً من
صميم ما دام سرّ هذا الكون مجهولاً وهو من يضل مجهولاً.
ولا معلقاً .

سواجبه في يوم مقدور ، نعدّ ذلك اليوم أم قرب.
'جل - في يوم لا ريب فيه، سنلقى حقيقة وعافقها
سرى الله جهاراً علناً..

سقف وجهاً بوجه أمام القوة العليا ،حركة هذه الأكرار
المدهلة .

واندين بعسه، يقور هذا، ويتأخوثة.. وهذا اتسؤ من
أروع آياته. فهو يؤكد أن الإنسان من يضل رهين الجهل
والبهس به سيصل. سيعرف كل شئ.. سىرى الحق
ويواجهه. وهكذا يسمح أمام الإنسان آماد الأمل والعمل .
واليوم الذى سيتم فيه هذا، يسميه القرآن "يوم المصّل".

حيث تُدعى الحقيقة في وضعها الفاصل ..

وبسمه "يوم الخُصم" حيث لاشتات ولا فرقة بل نحن
واحد معاً، حيث يلتقي الإنسان بالحقيقة التي طال بحثه عنها .
وبسمه "يوم الدين" . حيث نؤدي لنديس تحية الشكر إذ
كان الخافر الذي لا يهدأ وراء بطعنا إلى اللابهاى العظيم، وإذ
كان باعث أشواقنا العالمة، ومُخاضرنا السامية في شوطنا
الصويل ..

الدين، العلم، والفلسفة إحد، قوى اختلف إيهما الإنسان
يبتل بها نفسه، ويطلع به عايته وهي محللى فكره الشاقب
النامى ..

ركسة "فكر" تبدو، وفيها من السيادة ما يجعل وضع
كلمة "حر" إلى حوارها فضولاً ولغواً ..

فيس للفكر سوى حالة واحدة يتأكد فيها وجوده، تلك
هى حالة التحرر المطلق من شتى القيود .

أى أن ليس ثمة فكر حر، وفكر غير حر ..

هناك فكر .. أو ، لا فكر على الإطلاق .

ولكن للفكر أيضاً تناقضاته التي يتخذ خلاصاً طريقته،
ويعمارس وطيمته .. ولقد جهل الناس دور هذه التناقضات دهرًا

طويلاً فاشنجر يسهم الخلاف والرباع ولم يكن الذى حدث
ولا يزال يحدث من حصومة بين كل من الدين والعلم والفلسفة
- أو بتعبير أصح، بين رجال الدين، ورجال العلم، ورجال
الفلسفة - إلا مظهراً للجهل بعمل تلك الشافعات وحكمتها،
ومظهراً بشيء هذا التبرع فى المعرفة البشرية.

لقد تعودنا أن ندرس الفكر الإنسانى فى "قطاعات
رأسية" فنحن: الفلسفة، والعلم، والرياضة، والفن، والأدب،
والاقتصاد، والاجتماع... الخ. وبكر، حين نأخذ هذه المعارف
جميعاً، ككل ممثل فى الفكر الإنسانى، كما هو واقع فعلاً،
فإن هذه الطريقة كئيبة تخمد على احترام كافة القوى الفكرية
التي يعبر بها الفكر عن نفسه .

إن الدين، والعلم، والفلسفة، وما يتفرع تحتها جميعاً من
علوم مشقة منها - كالأدب، والصنوف، والرياضة، وعلوم
الفن، والكيمياء والحياة، والاقتصاد، والاجتماع الخ. هذه كلها
ممسكة العقل الرشيدة، التي لا تعرف الضعف، ولا يسمى هذان تعرفه.
والدين، والعلم، والفلسفة، وهي مَجْنَى ظهور الفكر
الإنسانى، ومجال حركته ولقد بثت نفسه فيها جميعاً يُسمى على
طريقها تحريره، وليحقق عن طريقها ذاته... فقيم الخلاف إذن...؟

كثيراً ما نرى المؤمنين بالعلم، وبالفلسفة، يخافون على
التقدم الإنساني من الدين .. 11..

ومأتى هذه المخاوف - هي رأياً - أنهم يجهلون مكان
الدين من الفكر .. ويظنونه "دولة داخل دولة" أو قوة غريبة
بجهولة اقتحمت حياة الإنسان ..

يبد أن المكر ثار في قلب الدين، وانتظروا الهائل المحرط
الذي يحدث للتفكير الديني ويحدد مبادئه، دليل على وجود
المكر هناك ..

ومن هنا، لم يكون الدين أبداً، خصباً على التقدم لأن
الذي يصوغ لتقدم مبادئه، ويرسم له خطاه، هو نفسه، الذي
يكيف الانحياز الديني، ويمسك برماده، ألا وهو المكر

وأيضاً كثيراً ما يرى المؤمنين بالدين يخافون العلم،
والفلسفة على الدين، ويخشون منهما على تقدم الروحاني
والأخلاقي ..

فدعهم هم الآخرون أن المكر الإنساني الصاعد، بما
يتوسل بهما - العلم والفلسفة - لإرجاء تقدم كل واحد منهما
مسيره .. لكانوا أقرب رُحماً إلى العلم، وإلى الفلسفة، بل وإلى
الحقيقة كلها ..

إنه مادم كل هذه القوى مظاهر خارجية لمفكر
الإنساني، فلا بد من أن نلقاها جميعاً بقدر مُساوٍ من الاحترام.
رجل العلم المؤمن بكشوفه وبقوانينه، لا يليق به أن يتجهنم
للإيمان الخالص، ولا يتكرر للاستشراف الروحي، لأن العلم
نفسه يفر من الأحكام النهائية.. وتقلب المسلمات،
والرياضيات التي بلغت الشأو من دفتها، كل يوم يربى يديه من
حال إلى حال.. وبدن، فهو لا يستطيع أن يرغم لنفسه حق
إصدار حكم نهائي ضد الإيمان .

ورجل الفسفة، لتأمره الفلسفة بتحصى الإيمان،
ونجاهله. لأن الفلسفة كلها عبارة عن "كيف.. ولماذا" ..

وإذا جاز لميسوف أن يتحرك من وراء هذين السؤالين
أى أن يبحث بحثاً حراً، غير مقيد بأحكام مسبقة حتى ولو
كنت ديبية فإن رجل الدين له نفس هذا الحق المشروع .!
ورجل الدين كذلك. لا يحق له أن يصيق صدره بنشاط
العلم، أو يصيق نفساً بخوار الفلسفة. ولا يسعى له أن تذهب
طمأينه حمرات من ذلك العدو الذى يحشاه دوماً. وهو
الإنكار أو الإخاد .

مبس على ظهر الأرض من لا يتعمى من كل نفسه أن

يكون ههنا إله قادر، يدحأ إليه في أزماته، ويطلب عونه، وسعيه
برعايته .

ليس على طير الأرض فرد واحد يسه ويس الله ثأر
وعداوة .

كل ما في الأمر أن الذين لم يهتدوا للإيمان، وقعوا تحت
تأثير الفكر الإنساني في سطة بعيدة بعض الشيء عن الإيمان .
كما أن المجيئ، تحداً سيباً محضاً، يسأى بهم عن العزم،
وعن الصفة قد صابهم من الأمر . فنفعو تحت تأثير
الفكر في نقطة أقرب إلى الدين، ونعد عن العزم، وعن الصفة
وأقرب المس إلى الكمال والتفوق، هم أولئك الذين
يكونون تحت تأثير مكافئ، ومتماثل من الفكر الإنساني العزم
والفكر الر تدحأ ليس حواسي يقول ههنا، ولا شيء معه
بل من يقول. "ههنا، إلى أن يظهر خير مه"

والحق أقول لكم إني لأحاف من الإلحاد على قصة الإيمان
أناً بل إنه لمن نعم العمة على الإيمان، ههنا الذي سميه
بالحاداً ذلك أن الإيمان لو ترك لضمائية، سوى ومات
إن جواً معارك، كان ولا يزاك المباح الطمعى لكل
ضرورة، وكل فتيلة .

ثم إن الدين، كأى شئ آخر، قد اكتسب خلال بطوره
ومساره بطيئات كثيفة من احرافات الدخيلة، والإضافات
المضطمة. ولم يكن ثمة ما يكشف هذا لدخيل سوى ناقد مثابر،
وخصم لحووم .

ألا وإن الحوم الماصلة بين الدين، والعلم، والفلسفة،
تتسع رويداً رويداً.. وبوم يسترد الفكر الأساسى انشائه،
سيختفى آخر معلّم من معالم التفاوت بين هذه القُرى
وحس لا يحاول بهذا أن يعقد صحفاً بين الدين والعلم
وفلسفة . وفي التحليل اسبائى حقيقة كل مهم لا خلاف
بيهما ولا نزاع ..

إنما اختلاف والفرع بين حرس الناس . بين الصوف
المحتشمه والمناسبه لإدر كى . ولد سوق هذا الحديث بعيد على
صوته فهم وتحديد علاقاتنا بالدين وبالعلم وبالفلسفة "ولاً" ثم
علاقاتنا ببعضنا ثانياً .

عد ما أداغ الفيلسوف الأثينى "الكساجوراس" أن الشمس
كرة من النار، وليست إلهاً، نفاه أهل أثينا خوفاً من أن تعمهم
الشمس بعذاب .. !!

ومن بعد اسكاجورس مئات المتهدد وآلافها، شهدت
أقواماً من أجداد البشر يتعرضون لدهوان، وللعذاب من أجل
الصدق

وفي كثير من تلك الرقائع، كانت الجماهير هي الوجود
الملتهب الذي يحرق العياقة والأبرار .

أين كان الفكر يومئذ ليحمي رواده ..؟؟
كان غائباً .

ذلك أن الفكر إنما يسط نفوذه عن طريق الثقافة وفي
المجتمع المثقف يكون نفوذ الفكر سامقاً وعظيماً، وبالتالي يرتفع
شأن الحقيقة ويتأكد سلطتها، ويصبح "كبت الحقيقة" خطراً
تقاومه الجماعة كلها .

إن أعظم ما يقدمه الفكر لسان هو أنه يؤمنهم من
خوف.. والإسكان لم يستطع أن يسيطر على نفسه، وبصع تاريخه
إلا بقدر ما كان يقهر مخاوفه ويتحرر منها.. وكان سببه هذا،
القوة الفكرية الواعية الدائمة التي كان الفكر يصيها في قلبه،
وفي ساعده ..

أجل كن الخوف ألد أعدائك ، ولا يرال ..
ولكن، ما شأن الفكر بالخوف ؟..

الصفة واضحة . والسبب الحقيقي للخوف، هو الجهل .
ولقد خفنا الرعد، والبرق حين كنا بجهل كنههما ..
وخفنا الأرواح، فعبدناها ..
وخفنا القحط، وضعف اغصانها، فدعنا أفسراداً مسا
وقدمتهم قرايين .

وخفنا ملوكنا، فعبدناهم، وبن أيام قليلة، كان شعب
كبير يعد "لليكاو" ابن الشمس ١.

كذلك خفنا، ولا تزال نخاف من المكر كل جديد . لأننا
كنا بجهل صبيغنا الصاعدة . وبجهل رادة التاريخ المعبرة عن
إرادة الإنسان في التطور، والتغير، والارتقاء وبجهل صانع
الأمياء حولنا .

ونكر الفكر الذي اقتحم جميع ماضق شعورنا، وتحريرنا،
والطبيعة حولنا، متى بديع نقي محاورنا أولاً .

وهذا هو دوره الباس العظيم .. ومن أجل هذا، ينظر
المكر إلى كل قوة تحاول الصعط عنه، وتحديد إقامته،
والتحكم في اتجاهه . يطر إيهب كحليلة للخوف، وللجهل
تريد أن تستقي في وعينا قدراً من الخوف بمكر هب، ويعرقل
مسعاه في تحريرنا .

قلد الفكر ببسط يهوده عن طريق الثقافة.. والثقافة،
هى الانعكاس الشاسع العميم حركة الفكر كله .

فما الثقافة هذه..؟ وما دورها..؟ وما واجباتها..؟
إذا شبهنا الفكر بالقلب؛ والثقافة حى الشرايين التى يؤدى
القلب بها وطيفته .

وإذا شبهه بالدماغ، فالثقافة هى الجهار العصبى الذى
يتلقى عن الدماغ ، ويعطيه ..

وكما أن كلاً منهما - القلب - والدماغ - يعمل طرداً
وعكساً فكذلك الفكر مع الثقافة يعمل صرداً وعكساً..
يعطيها ويأخذ منها هكذا يستكمل تقدمه ومجاؤه .

مر أجل هذا، يصير كل إصرار بالثقافة إصراراً بالفكر
نفسه وكل إعانت معها، بصيب الفكر بالأدى الذى لن يَكُنْه
قطعاً عن أداء دوره.. ولكنه يعرقله ويعاقبه .

والفكر غالب على أمره. وسرعان ما يكتسح كل
حقبات طريقه. وينهب صاعداً.. لكن الديس يحل بهم النسوء
الطويل حقاً، هم الناس الذين يتخلصون عن الفكر بتحديثهم له،
وينقطعون ما يجب أن يبقى موصولاً بينهم وبينه من وشائج
وأساب .

حيث تكون الثقافة، يكون الفكر ..

وحيث توجد الثقافة رفعة شامة، يوجد الفكر رفيعاً شاملاً.
والفكر الإنساني، لا يسي أند وطيفته الرئيسية.. وهي
تحويل الجهالة إلى معرفة.. والحدوف إلى جرأة، والعشوائية إلى
منطق، والسذاجة إلى وعي مكتمل، وبعمارة واحدة . تحويل
الدعماء إلى صفوة .

أجل.. هذا هو الدور الحق للفكر والثقافة.. تحويل جميع
عرائزنا، ومشاعرنا وطعت إلى طاقة منكسة، ورومع الأعداد
الهائلة من البشر إلى مستوى الصفوة ..

كان الفس للصفوة.. وكان العسم للصفوة كما كانت
أخياة كنها بكافة ماعمها ومباهجها للصفوة.. وكسر الفكر في
رحلته كان يادى الكافة، ويُعى تصيرها وكثيراً ما كان يترك
القصور الشاهقة الباعمة المادحة، ويسرع خطاه نحو كهف أو
كوخ متعب، تسكه أسرة متعب، فيلقى بكلمة اسرّ إلى طفل
شاحب جائع غريان.. فيمضى على غير بهج أربابه، وبعد حين
قريب يتكشف عن عبقري عظيم .

إن الفكر بهذا كُشف عمّا في صفوف الكافّة من
ستعداد، وأبطل حجة الصفوة في استبقاء الفس والعسم والحيلة

لها وكشف كذلك عن عدايات رسالته وعمله .وعلم الثقافة
دورها، وعلمنا وجبا تجملها ..

ولثقافة بقصا بدء، لكي تؤدي عملها كاملاً غير
منقوص ..

(١) الجماهير الإنسانية ..

(٢) الطبيعة الإنسانية ..

إن الجماهير الإنسانية ، هي المَحْنَى الحقيقية لظهور
..إنسان.. الإنسان الذي يعمل داخلها، دافعاً نفسه ودافعاً إياها
معه إلى الكمال المبرور

ولقد دهمت عصور الامتيازات، ولن تعود ومن اليوم بل
ومن الأمس شرعت الجماهير تمسك بأرمة حياتها .
ونقل الثقافة لنكافه، على رأس واجبات عصرنا والتمارسه
تجاه نفسه، وتجاه الأجيال .

أجل، وإن التربية هي الطابع المميز للبشرية الحديثة التي
طلع عصرها، وأهلت أيامها وهي - أعنى - التربية تنهت لتأخذ
مكان أشياء كثيرة، طالما اعتمد عليها في تقديم الدرس .

وحير طريق سلوكه لدفع التقدم الإنساني، هو أن نصنع

وصبة سمراط موضع اتفيد الساجز، تلك الوصبة التي تدعونا بأن "تعلم أكثر مما نُحرم" ..

لقد سار الإنسان طويلاً بقوة العقيدة، وسار طويلاً بقوة التقاليد والعادة .. وسيسير طويلاً بقوة الثقافة ..

ليس معنى هذا أنه سيتخلى عن العقيدة، ويسد صالح العادات بل معناه أن الثقافة هي التي ستستق، بل بدأت بالفعل تستق مجموعة المعتقدات والعادات. وهذا يكشف عن ضرورة تعميم الثقافة . .

إنه ليس برسع الناس أن يقفوا عند تقاليد انتهى دورها.. وإن الخهل ليزين هم الوقوف حتى تأتيهم قوة تفديهم .

وإذا كانت حركة التاريخ هي تلك القوة التي يصطعبا الإنسان لهذا، فإن خير ما تعتمد عليه حركة التاريخ هذه، هي الثقافة .

في الأرمال القديمة، كانت الأسطورة تُكافح بأسطورة مشها ولكر الإنسان اكشف أن لهذه الطريقة آفاتها.. فالأسطورة الآلة م يكر العير يلع صميمها.. كان الذي يتعير، هو شكها لأطبعنها ومن ثم أعطى الثقافة كل ثقة، وصار يعتمد عيبها في صوع آرائه، وعاداته، ونظمه

وكما انتهت عصور المُسمَّات، والأحكام النهائية بالنسبة
للعلم، فيسعى أن تنتهى أيضاً بالنسبة للناس، حتى لا يضلُّوا في
الفوة الفاعرة بين مسلك العلم، ومسلكهم .

أعنى أن الجماهير نفسها. يجب أن تتوفر لها فرص التفكير
بمهاج عسمى، وتشجده ملكات البحث لديها، حتى لا يعمل
العلم بعيداً عنها، وحتى لا يتسع مدى هذا الانفصال المملوحظ
بين العقل والخلق.. بين العلم والسلوك.. وهذا يقتضى أن يتوفر
ها أكبر حظ من الثقافة

سيقول بس م، مانجمامير والثقافة..؟؟ أولئك هم
لنارعون إلى الارستقراطية، والامتياز، والاستعلاء...!
وأولئك هم انديس يسرون أن جُلَّ العاقرة يزغوا من
الكهوف الخاوية . ومن صفوف الجماهير العريانة اسائسة ..
وأولئك هم الذين لا يستشرفون - أقل استشراف - مصير
لإنسان ..

إن مصير الإنسان، هو مصير هذه الجموع.. وإن الإنسان
ماصر إلى قمة السمقات . ما في ذلك ريب.. وإذن فالجموع
ماضبة إلى نفس المصير العظيم. وسيأتى اليوم الذى تُعمَّم فيه
العبقرية والمعجزة.. وإما شيد بأهمية العمل من أجل تعجُّل

هذا اليوم، وذلك بالقيام بكل نبعائه.. وأوطأ نفل انقفاة للكافة.
 سيقودون أياهم للجماهير أن تمتلك لثقافة، وهى اتى
 تقودها عريرة التصع.. هى اتى ترى أهواءه توجه بها صوب
 كل تافه من الأمور وغث..؟؟
 أجل إن عريرة انقصع تقود الجماعات.. ولكن أليست
 عرثر الحيوان تعمل عملها هى الفرد العبقري ذاته..؟؟؟
 إن مصير هذه العرائر معروف فى مستقبل لإنسان.. إنها
 جميعاً، هى الفرد وهى الجماعة، ستتحول إلى قوى إسمائية
 محصة عالية
 أما اتحاد أهميها إن كل تافه وعث.. فذلك فرص الثقافة
 بعيدة منها كل البعد .
 إن الجماهير تُؤثر - حقاً - وسائل التسمية، والترفيه على
 معاينة المعرفة، ومُدارسة الثقافة.. ولكن مسئوليتها عن هذا
 ليست إلا جزءاً من مائة جزء، من مسئولية قادتها وحكامها.
 كما أنها أيضاً مسئولية الاستعمار لدى عاث فى الأرض
 فساداً، والذي يعتمد على دعم سلطانه على عقلية الجماهير
 ويُشجع دوماً إقائفاً على التسلية، وعلى اللهو واللعب
 والصراع، ويحافظ سرمة.. وهو لهذا يحشد أرقام الناس بما

يُسيهم ما يُريد هو أن ينسوه، ولم يصرفهم عما يريد هو أن
يصرفوا عنه..

لكن ذلك لم يدوم.. لأن الجماعة الإنسانية كما أُلِّفنا
تسير في طريق صاعد.. وركوبها إلى المتعة الصارفة عن التفكير
وعن المعرفة أمر مصاد لطبيعة تطورها. بل هو أمر كقبل
بالقضاء على جهودها فكأن من حصاره، ومن امراضه،
قضى عليها إيثار المتعة على المعرفة..

ونقد انتفع الإنسان بهذه التجربة، ولم يسمح بالأسكاس
إليها . يقول جلبرت هايت :^(١)

"عندما عرانا اليابانيون انصيص، عمو، نتجارة الأفيون"

"فأباحوها، وشجعوها في جميع المناطق المختلة.."

"واتخذ الألمان - المزدك - وسيلة كهذه للرسم في

بولندة"

"أما - شادو - الحاكم بأمره في كوبا فكان خلال"

"حكمه يعنى عن عرض أفلام خليعة في مسارح هافانا"

"كلما توقعنا شرطته السرية ثورة أو احتجاجا ."

"وهكذا نستطيع أن نمسك كثيره شعب إننا وفرت"

^(١) كتاب "حيوات العقل"

"ها توفيراً لا يقطع من مدات تُسد عقلها . !!"

هذه الأمثلة تبين لنا بعض العوامل التي تحول بين الجماهير والثقافة .. والتي تعمل جاهدة لئلا عملها، وتصلل تفكيرها ليس من العدل إدد أن نحاسب المجموع عليها حساباً يُفضى إلى حرمانها المطلق من أقسى حقوقها ..

إن الثقافة ليست امتياز . إنها حق الجميع . وليس من الخيال أن نطمح في جماعة إنسانية منظم أنفى مليون نفس أو يريد، ثم نُحرر كتبها من الثقافة ومن البوع ما يحرره الأفراد من بعض أفرادها ..

أجل ليس هذا من أحياء . بل هو من اتسعة التي تشكل جزءاً هاماً وصادقاً من مُنة الحياة التي تقبلها واثقين

على أن هذا الارتباب في الجماهير، يمثل بدوره سبباً من أهم أسباب الإدعان حقها في نقل الثقافة إليها . ذلك أن هذا الشك يعكس على القِيم الكسيرة فيفسد عليها الإدراك السديد ها .

ونضرب لهذا مثلاً - الديمقراطية ...

من كان يعتقد أن فلاسفة الحرية في العصور الخالية

يقولون كلاماً بيعت الديمقراطية بأنها خرافة.. لا شيء إلا
لارتياهم في قدرة الجماهير على تطبيقها ..؟؟

لقد حدث هذا ، والذين بشرُوا بالديمقراطية عنادوا من
أمرها يائسين .

فعضوهم ير ها "أثر" من آثار ابولاء القسنى للحرب".
وبعضهم يصعها بأنها "حكومة الدين لا يحكمون"..
بل رور عن "روسو" مجلس حقوق الإنسان هذه العبارة
المرحمة: "الديمقراطية الصحيحة، لم توجد قط وس توجد أبداً!
وحكومتهم عن كارليل فوله: "الديمقراطية بطبيعتها شيء يُدعى
نفسه بنفسه ويؤدي في نهاية الحساب إلى نتيجة هي: صفر
صحيح " !

و "فولتير" - الذي لا تذكر الحرية إلا مقروناً بها اسمه يقول
هو الآخر: "إنا في الطغام المسكين لا نحتاج إلا أن نعلم رجلاً
واحد .. أما في الديمقراطية فيسمى أن نعلم الملايين الذين
يحتفظهم الموت قبل أن نعلم عشرة في المائة منهم" !!!

هل سأز أوتلك الأعداد أنفسهم، ساد أفضف، أو لمداد
نحقق الجماهير في استخدام الديمقراطية ؟..

إنها أخفقت لأنها لم يكن لها من الأمر شيء

ولم يكن لها من الأمر شيء لأنها تخاف
وهي تخاف، لأنها تجهل.. ومن ثمّ يفسس قيادته لكل
معامر .

ومن هذه المشى لدى صرباه، يُرى كيف يعكس الشك
في الجماعات على تفكيرها، وعلى قيمها.. (يُرى بالتالى ضرورة
تغيير نهج في صياغة الأحكام اسي لظننها جُرافا على
الجمامير والجموع .

إن جمامير . أثب - التي نقصاتها وهي تحكم بالموث على
سقر ص وجمامير - أورشليم - التي هُلبت لمشهد مسيح وهو
يقاد إلى التعذيب وجمامير - سورسا - وهي ترجم بالحجارة
مقدمها الأميين سافونارولا ..

وجمامير - روما - التي عشبها الحُور وهي تشهد بحرق
برونو..

والجمامير التي سارت وراء المعامرين إلى حتفها في
حروب تنو حروب ..

كل هذه الجمامير، م يكن سقصها كى تقف الموقف
الراشد القويم سوى الثقافة والمعرفة . ولو أنها كانت تعرف،
وتفكر، وتفتن، إذن لكان لها من أمرها يُسر، ولُبعت من

أمرها رُشداً ..

إن الجماهير البشرية، هي مُعْطَى الإنسان، ومستقر حركة
وعيه ونشاطه .. والإنسان في كونه الحق.. فكل .. الجماعة هي
كلياتها الحق ثقافة ومعرفة ..

وكل تطور لنا إلى أفضل، رهين بما ينوثر لنا من فرص
الثقافة والعلم .

لست مرة العلم أنه سحر بالطبيعة وحسب .. بل إنه
والثقافة بصفة خاصة يسيانان علاقاتاً بأنفسنا، وبطبيعتنا،
وبالحياة، وبالكون كله .

فعشر بـ الملايين ما - نحن البشر - نسمعهم "الليفون"
ثم لا يعرفون ما هو؟ ولا لماذا يتم الاتصال هكذا بين الأبعاد
وعشرات الملايين يُصدرون الراديو بهارهم ومُضاهيهم،
دون أن يعرفوا كنه المشيئة الخفية التي سحرت لنا هذا العمل
العظيم ..

ليس معنى هذا أنه يسعى للناس أن يتحولوا جميعاً إلى
فنيين في صناعات لتلفون، والراديو، والكهرباء .. وإنما معناه
أنه يسعى لهم أن يتركوا جميعاً مآلئ العلاقة الهائلة التي تربطنا
بناكون، وبالأشياء كلها ..

والعلم بكشوفه، بعمرنا بالصدقات السابعة، وفي كل
اكتشاف جديد، يقدم لنا صداقة جديدة مع الهواء.. مع
السماء. مع النكواك مع النجار. مع كل شيء في كون الله
الرحيم ..

وتعميم لإحساس بهذه الصداقات بين الجموع الإنسانية
أمر ضروري لكي تطهر بالمريد من الطمأنينة، ومن الدكاء،
ومن الأمل.. ولا شيء يمنحها هذا الإحساس سوى انتفاضة .

كان "جورج واشنطن كارفر" العالم الزراعي الأمريكي
يحكي فوق السات في الحقل، وفوق العشب في الكلا، فوق
شارت الأشياء المهمة الملقاة على الأرض، ويحلق فيها بعض
دكيتين، ويشمها بعم شكور، ويصغي إليها. فإذا مثل

- ماذا تفعل يا ماستر كارفر .. ؟؟

يجيب إني أنصت راعي

وهل تحدثك هذه الأشياء يا ماستر كارفر .. ؟؟

يجيب :

أجل - إن الله يتحدث إن من خلالها ... !!

هذا هو الرجل الذي سيطر من الفول السوداني وحده

قراءة مائتي مكتشف وحيد، ما بين طعام، وناس، وشرب

لأنه احترم علاقته كإنسان بأشياء الطبيعة حتى مهملاتها السي
يدوسها الناس، وحول صادقاً أن يكشف دور هذه العلاقات.
إن تطور أفكارنا ونموها، رهيان إلى أبعد مدى، بأدراك
مفاهيم العلم، ودور العلاقات التي تبدي لنا خلال كشوفه
العظيمة، على أن يكون هذا الإدراك من نصب النكفة.. وجميع
الناس .

وإذا لم يكن يجب معرفة التفاصيل النسبة لكشف ما فياه
بعبء كثيراً وكثيراً، أن نعرف القوانين التي وراء هذا الكشف،
ونعرف كل علاقاتنا به، ومصيرنا معه ..
إن هذا المعرفة ضرورية.. ولنضرب لهذا مثلاً .

لعمري لم يحدث في التاريخ الإنساني إجماع على مقاومة
الحرب مثلما يحدث اليوم..

فماذا .. ؟؟

رغم لأن خسائر البشرية في الحربين العالميتين السالفتين
كانت نذيراً رهيباً ..

ونكن قل هذا، وعرف هذا . اكتشاف الطاقة الذرية .
واكتشاف هذه الطاقة ليس هو الذي ألهم الجماهير
الإجماع ضد الحرب فأكثر من خمس وتسعين في المائة من

سكن الأرض لا يعرفون عن صناعة الدرة شيئاً - أى شيء - إنما
اكتشاف العلاقة بينا نحن البشر، وبين هذا لطاقة الهائلة، هو
الباعث والسبب

لقد أتت لرأى انعم العالمى أن يعرف حقيقة دور الطاقة
الذرية فى الحرب ..

بها الإبادة الشاملة، والدمار المطلق .

وهنا حفز هذا الإدراك جميع الناس لدرء الحرب ..
كما أُتيح لرأى انعم العالمى أن يعرف حقيقة دور الطاقة
الذرية فى السلم ..

إنه الرجاء العميم الذى يجعل الأرض فى نضج سموات
فردوساً ما مثله فردوس .

وهنا نبعث الناس جميعاً يخلصون بدعوة السلام ..
ولئن كانت حصارات كثيرة قد تقوصت فيما سبق من
عصور بين يدي الإنسان، فلأنه لم يكن قد عرف بعد، قيمة
وحتمية إدراكه بالأنساء، ولم يكن نوعه لبشرى قد نهياً بعد
لآداء حقوق تلك العلاقات ..

أما اليوم، فقد أدرك الإنسان، وصار أساس أكثر استعداداً
لهمم العلاقات وتحمل تعانيتها وسيصيرون عداء، وبعد عداء،

ودائماً أكثر فهماً وأكثر استعداداً ..

ولن تهب ارياح التي تسأ بها الشاعر "البوت" والتي
ستجنى حسب سروره لتكس نايابا الشرية المتحررة (القافية)،
والتي ستعوى قذلة :

"ها. عاش قوم كرام لا يؤمنون بـإله . "

"وأثرهم يوحيد الباقي هو طريق مُعَدَّ بالأسفلت"

"وألف كرة من كُرَات الجولف" ...!!!

أجل، لن تهب هذه الريح . مدمم الشرية قد عرفنا، وما
دمت قد أدخلت في اعتبارها الأكيد اريح، تعميم الثقافة .

قد يرى بعض السادة أن الثقافة تفقد عظمتها وقيمتها
حين تنقل إلى الكافة وتعتبر طَوْعَ أيديهم ..

وهذا يشبه قوماً من الشمس تشد أكثر من وجاحتها
وعظمتها كما وقعت أشعتها على الأعداد الكثيرة من الناس،
سما أعداد الدهماء والسوقة...!! أي مطلق هذا . ؟؟

إيا لو رأيا رجلاً جاراً، يكم أنفاس الناس وبكمم
أبوفهم، حتى لا يرحمونه في شق الهواة، أو حتى لا يحدثوا في
اهواء أرملة !!، لما كان أدعى إلى العجب، من هؤلاء الديس

يحافون على تفوقهم، أو يحفون على ثقافة نفسها أن تعيص
وعنى، حين نفترب الكافة مها، ونعترف ١١..

والجماهير، هي الإنسان في ديره التاريخي، هي الإنسان
في حركه اسامية هي الإنسان في كبريه الصائرة.. والإنسان
هو لفكر ادري.. فأي شيء يعبه حرمان المجموع من الثقافة
بأفصح وأرحب مدلولاتها ٩٩..

إن ذلك لا يعنى قتل الإنسان، فالإنسان م يوجد لتقتله
محاولات انتعه، أو نظريه الروابع الصائفة وإنما يعنى فقط
انعمل ضد طبيعة لإنسان، وعمل كهذا يحمل مسور تمسحه
واخلاله من أول وهلة

* * *

ونكس أي نوع من الثقافة تقدمه للناس . ٩٩

ها سنقى نقطة البدء الدييه، وهي طبيعتنا الإنسانية..
لقد ذكرنا آنفاً، أن للثقافة نقطتي بدء. الجماهير الإنسانية،
والطبيعة الإنسانية. ولقد تحدثنا عن صفة الجماهير بالثقافة،
والآن نتحدث عن صفة الطبيعة الإنسانية بالثقافة أيضاً .

إن طبيعتنا الإنسانية، تملك الرصلة التي تحدد وتشير إلى
حاجاتنا الثقافية ..

هذه الطبيعة التي لم تحقق بين عشية وصحاه.. وإنما
تكونت عبر ملايين السنين، وأصبحت تمثل كَوْناً هائلاً واحراً
بالرؤى والتجارب، والإمكانيات ..
إليها هي التي توجه بنا إلى الفلسفة، فتفلسف، وإلى العلم،
فكتشف.

وثقافت بحر البشر، إنما تعمل في عدمتها، وتهيئة وسائل
ارتقائنا . من أجل هذا لا يكون طريقها سوى أن تبدأ بالمثل
العُلْيَا.. هابطة إلى طبيعتنا.. بل أن تبدأ من صمغتنا الإنسية
متجهة صوب القمم والمثل.. هذا إذا اعتبرنا المثل العليا شيئاً
خارجاً عن صمغتنا، وهي ليست كذلك فيما يرى
وإن حبنا الفصري إليها حتى ونحن في حمأة الرذيلة،
وشوقنا الدائم إليها حتى ونحن في مناهات الشهوة، يشيران
إلى أنها، أعنى مُثُلنا لعب، ليست في الواقع سوى جزء من
طبيعتنا تاه منا في رحمة الحياة ولا تفتأ طبيعتنا تعمل جاهدة
لاستردادها، وتجري بنا وراءه، كما تجري الأم الحانية وراء
ولدها الغائب .

فوجيه الثقافة، ووضعها تحت إمرة الوصاية صيانة بلطف
السائد والقيم السائدة عمل غير صالح، لأن جهة الاحتصاص

الوحيدة في توجيه الثقافة، هي طبيعتنا الإنسانية ممثلة في
الإدارة الكلية خيرة نبي الإنسان. كما أن لثقافة كقوة
وعية، هي التي تمثلت بحديد المواقف التاريخية للمُتَلِّ العلي،
وللمصائل الاجتماعية .

وإذن فمن اهدر وانفصل، أن يتلَمَّس بأس بهذا السوءال.
هل توجُّه الثقافة، أم تُترك حرة .. ؟؟

إذا كان مفهوم اتوجيه، استقصاء حاجاتنا الثقافية دون
أى مساس بحرية الكلمة، وحرية الثقافة - فبعضاً هو.. أما إذا
كان مفهومه تحسس الدروب والأرقه السى تشي فيها لثقافة
عنى ستحاء وحذر، فها نصبح بحاجة ماسة ومُلحَّة لأن
نذكر رفض لثقافة لكل توجيه دخيل .

إن الثقافة حتى حين تطوى على جرأة، يحسها العَص
ثمرداً.. يجب أن تطلَّ طليقة ..

وإنا حين نستعرض فترات التمرد الفكرى فى تاريخ
المشر، جدها نفس الفترات التى تحدث خلالها المصائر
العظمية لى، واستنات عسها معالم طريقنا الصاعد .

أن ثمرد سقراط، وكوبرنيكس، وجاليليو، وبيونس، واس
رشد، والفرايى، وضرارهم القويم من الأفساد، كان ضرورة

بقدر ما كان قضية ليس لأنه اكتشف قوانين هامة وهدى
إلى فسيقات قيمة وحسب... بل لأنه قوَّض الإيماء المستمر،
والإملاء لصاغط، والتقييد لساذج، وأتاح للعقل الأنسانى
أوفر حظ من استقلال الشخصية واستقلال التفكير .

إن لالترام بقيص المعرفة .

فالالترام، ترقف، وحمود، يسما للمعرفة تطلُّع، وانتقال،
وكشف وحركة مستمرة .

ورداً كد العلم السى برن وقيس، وينوسل بالمعادلات
وبالقوانين، كثيرٌ مسا يعادر يقباً إلى صده.. فهل يكون من
العدل والمطلق إدن، أن يعكف الساس على رأى ما، باعتباره
الحق المطلق الذى لاسعى فهم أن يحاوزوه .. ٣٢ .

وهل ثمة تفسير لتوجيه الثقافة غير هذا..؟؟

صحيح أن الإلتزام كان نافعاً.. إذ أنه طالما حضر أصحابه
لى التخصص، والتعمق، واستكناه يواطن الفكرة التى هى
موضوع الإلتزام، مما يعطى للمعرفة فرصة ومحالا.. ولكن بعد
سيادة العلم.. والعلم بطبيعته يملك رغبة حادة فى التفصى،
وبمذك قسرة فائقة على سوغه. م يعد ثمة مكان للالترام، ولا
مكان لما يحجم عنه من نعصب، وغرور، وركود .

وهكذا نصل إلى الإجابة السديدة عن لسؤال الصالفة:

- أى نوع من الثقافة نقدمه لباس ..

إنها لثقافة كلها، والمعرفة جميعها ..

فالثقافة كالطب، لاتعرف الحلال والحرام ..

كما أن جمع أعضاء الإنسان فى عين الطب سواء ليس
فها ما هو عورة . وما هو غير عورة . وكذلك موضوعات
المعرفة كلها بالنسبة للمعرفة، ليس بينها ما هو حلال، وما هو
حرام .

فالخطر - أياً كان لونه - لاسلطاب له على الفكر، ولا
يسعى أن يكون له سلطان على الثقافة موضوعية الأصيلة .
ولا بد أن نقف هنا نقرر أن لسكر لاسلبي لافى من
الخطر فى كل العصور، وفى كل سقاع ما كان كادياً للإجهار
عنه لولا ماعته المذلة وطبيعته الخالدة .

واطلاق الفكر، وانطلاق معه، رهينان عما يقدمه به من
تقدير وولاء وفهم سديد لحقوقه ولذوره .
أجل، على المجتمع الإنسانى كله أن يفض يديه، ويعسبهما
من عبار وأوضاع المعركة الخاسرة التى حاولها مع الفكر.
إن لخطر الأخلاقى كثيراً ما يحى ثرة فجّة للعطش كثير

وسأصرب مثلاً .. الحُبُّ

الحب على رأس القيسم العليا بشرية. وكما شجذت
العصاء أباها بين السياسات والدول، بدت حاجتنا إلى الحب
"كبر وأكثر.. وأيضاً كلما رفعت الأمانة أعلامها، ارددنا هتافاً
بالحب ، واستجاذاً به .

فما هو الحب ؟

إنه فى التحليل السهائى لحقيقته، تعبر حنمى عن طبيعتنا
الاسماية، وهو من حاجاتنا الأساسية التى نشرك فى حتمية
الظفر بها - أفراداً، وجماعات..

والعصاة التى يُصَيِّها الحب إنما تمثل فى الحقيقة، فرح
اسفس بالعشور على تناسقها

ذلك أنه حُبُّك إنساناً ما، إنما يمثل حالة تسقى تنقدها
وحين يصبر هذا الحب لتحقيق ذاته، وتترك أنت اسس الذى
أحست، فحُبُّك العصاة والراحة. لأن نفسك آشد، تكون قد
عثرت على تناسقها المفرد .

وهكذا، فالحب ليس مجرد سرور بل إن
كلمة "حب" تكاد تكون تعبيراً هريلاً عن حقيقة الحب .

تكاد تصلح للتعبير عن الاعمال الحُبِّى أكثر مما تصلح

تعبيراً عن حقيقة الحب نفسها .

وقدما قيل، وإنه لحق "فأفقد الشيء لا يعطيه"... فلا يستطيع
أحد أن يهب الآخرين حبّه وقسه... إلا إذا كان يملك أولاً هذا
الذى سيدل منه وبعضى .

ولكن كيف لا يمكنه. وقد قسا به - أعنى الحب - بعكاس
لطبيعتنا وحاجة أساسية من حاجتنا .. ؟؟

"جل، يا فقداه، ممكس إذا واصلنا ردّم مابعه في
صيعت. ولتحدث بوصح أكثر

إنا نرجو من حب؛ أن نخعسا - نحن البشر - إخوة
متاحين .

واحب، ليس جوداً يُخترن من السوق حيث سبغ به
لعرض العظیم. ولكنه وطيفة من وطائف طبيعتنا الإنسانية،
وتعبير عنها. ونشاط دى أنه يبدأ رحلته من طبيعتنا .

وصييعتنا تموج بأهواء عدّة. وأرحح هذه الأهواء حتى
يرمى هذا، هو الحوى الحسى لذلك لست الحب رماً طويلاً
لا يكاد يعنى شيئاً سوى تعبیر عن الهوى الحسى، وإشباع له .

وعلى الرغم من جهود اندياسات، والفلسفات انشى
حاولت الارتفاع بمسوى الحب، فقد كانت الطبيعة الإنسانية

من القوة بحيث طَلَّتْ ممسكة بنقطة انطلاق.. ولم يكن ذلك
عشاً. بل إن المراحل التي سارها ويسيرها الحب في صحبة
عريرة الحب، إنما تتمُّ لصاح المثل العليا التي يهفوا إليها.. ذلك
لأن المثل العليا لا تستطيع أن تحفى عنا صبعنا، واجتمع
الإنسانى - فى واقعه - لا يقوم على أساس من مثل عليا مفصصة
عن طبيعته.. بل يقوم على أساس من طبيعته الإنسانية المتصصة
مُثلها العليا .

وما دام الحب حتى البرم، ورغم كل المحاولات المثالية
لا يزال إن حد كبير مُعمداً بالحبس، معبراً عنه، فمعنى ذلك
بالبداهة أن طبيعتنا الإنسانية لا تزال متصصة إلى هذا المسلك
سحقيق ذاتها، وأن الحب الحبسى لم يته بعد عصر سيادته .
وهذا يدعو إلى أن نتقل هذا الحب بدلاً من أن يكافحه
ونقومه مقاومة تصدُّ أمد بقائه، وترجى قدوم حب آخر مُسمى
وأشمل لن يتأثى له الحى حتى يجر الأول عمه، وينتهى دوره.
لقد بدأ العلم بالسحر لمصحك، والسداجة المثيرة وحجر
الفلاسة .. ولقد ظل كذلك آلاف السنين .

وبدأ التديس - قبل أن يأتى الإنسان من ربه هُدىً -
بعبادة الطوطم، وعبادة الأشباح، والأسلاف والخرافات..

ولبت كذلك آلاف السنين ..

ولكن فى النهاية تجلّت الحقيقة الناصعة للعمى، والحقيقة
الناصعة للمؤمن ..

إبنى أصرب هـد المثل، لتبصر كيف أن أعظم قواتنا
الإنسانية المتمثلة فى الدين وفى العلم، لم تسج من سس التطور
الطبيعى .. وأنها عاشت بأخطائها حتى بضئها أحر الأمر عن
نفسها وتعوقت عليها .

كذلك كل نشاطنا الإنسانى، يعيش بأخطائه حتى يتفوق
عليها .

وكذلك أحب يحيا - الآن - بأخطائه وسوف يتفوق
عليها .

إننا لكى نحصل على ذهب خالص، لاتفول للأرض:
اعزلى ترابك .. وأخرجى ذهبك .. !

وإنما تأخذ من مَطَانُ الأرض كل ما هـاك .. ترابه . ،
وخشاشه، ووحله . ثم نبدأ العمل، فستخرج الذهب الخالص،
ونتنفى الرواسب كلها ..

كذلككم الأمر - إذا أردنا أن نطفر بحب إنسان يُنفع
الشريعة المقرورة، ويرفعها فوق مستوى النصح والعداوة ..

أن ندع الحب يزاملنا في رحلتنا ..

كان "أفلاطون" يقول :

"إن أشق صداقة بمكر المحصول عليها هي صداقة المرء
نفسه"

و نحن البشر، كثير من محاصم طبيقتنا فشب عجزنا
المؤسف عن أن نكون أصدقاء ومحبين ونقصية الحب التي
صربها مثلاً، تكشف عن إحدى تلك الخلالات التي يعجز
فب عن أن يكون أصدقاء لأنفسنا ولصحت

إن كثرة كثيرة من أساس، تنطير وتنور عندما يُخلّى
حاجة الحب، أو يُوضح مشاكل الحب، كاتباً أو سائلاً.^٩
فلماذا^{٩٩}

يقولون إن الكلمة المطروحة كاصحة .

فلتكن كذلك. ولكن أكثر من ذلك فأى بأس؟ إن
هذا هو أساح الوحيد الذي تكوّن الإنسان خلاله
لقد تُرك ملايين السير للعرى، ولللدح، وللخواء،
وللوحوش، والصواعق ولأعصاب، لأن ذلك كله كان أجمع
الوسائل لاستكمال كيان الصائد الصاعد الجار ..

فلتغش روحه، وإرادته، وحُلاقه في نفس المُتاح.. وخير
العواقب في انظاره.. وكما انتصر جسده، ستتتصر رُوحه .
على أن في سرورك الناس تجاه الكاتب أو الفنان الذي
يُحسُّ الحب والحبس موضوع قِمه أو رِشته .

أقول: في سلوكك الناس هذا، ما يثير الريبة، وما يدل على
أن وراء مسلكهم هذا سوء تقدير للأدب ونفس، وسوء فهم
لوظائفهم ..

برهان ذلك، أنهم لا يصيِّقون صدرُ، ولا يأسفون أبدًا،
ولا يخافون على أنفسهم ولا على أبنائهم وبناتهم من كلمة
العلم في الحب وفي الحبس ..

مهما يقل العلم، ومهما يُقص في الحديث عن جوهر
الحب ودوافعه، ومهما يُقص في الحديث عن الحبس، وعن
صبيغته، واحتياجاته، وانحرافات، ووظائفه العنصرية والنفسية...
لا يخافون حديثه، ولا ينظرون منه ..

فهماد، يخافون وينظرون من الكاتب، ومن الفنان..؟؟ إن
الأدب واقس، يؤديان نفس العمل الذي أدَّاه العلم.. ولكن
بأسلوبهما وطريقتهما ..

إن مهمة العلم أن يكشف الخصائص الذاتية للشيء.

أما الأدب مثلاً، فمهمته أن يصور شيئاً في كل واقعه،
وهي كل علاقاته، ثم يستشرف العايات البعيدة، والتطور
الممكن لهذا الواقع .

فمَنْ نحاف ونُحاذر...؟؟

إن حياتنا تغرب من كمهاكلما أحداً ناصية الرصوح
ولقد عشنا رُمّاً طويلاً نقتات بانطون وبسألهو احس،
وبالحروف وطالما صُعاً حياتنا وسلوك وفى أوهام ما كان
أبعدها عن الحقيقة .

وإن الإنسان هو لكمة الوحيدة في عالمه وعليها أن
تدرك هذا جيداً

وإن الصدق، والخير، والجمال، والحب، وكل هذه المعالي
سوى تعبيرات ملائمة تعكس طبيعته العظمة، وتعكس عيوبها
مشارف منقلبه انواعد الخليل .

وإذن، فلا مكان للحظر الأخلاقي في فكره، ولا في
ثقافته فالعمل لأخلاقى لثقافة إن يدُ ماكتشاف الخطأ .
فكيف تكتشفه، إذا حرّمنا عليها وسائل معرفته...؟؟

ليس معنى هذا، أنا بارك الخير والإسفاف. فالفرق بين
لثقافة وبسهما واضح ومبين ومع هذا، فأكاد أحس بالحاجة

إلى تحديد سبب المفهوم الثقافة التي طالت بحققها على التحرر من القيود، إنها في رأيي "كل تفكير صادق".

كل إنسان يفكر في صدق ومضى أمانة مع نفسه، ومع الحقيقة، فمن حقه أن يستمع له مهما يكن الخطأ المطوى عليه تفكيره وتعبيره.

إن الصدق يتضمن لشعور بالتعنية بل هرطقة هذا الشعور.. وحسباً من الكاتب، أو الفنان، أو المفكر، أو لعائيم، - أن يكون على هذا الخط من الشعور بمشولته وهو يؤدي رسالته.. وهو ينقل إليها تجربته. وهو يكشف لنا من المجهول جزءاً لم يكن يعرفه، ولم تكن نراه.

نحن نعرف أولئك المفكرين الذين تحدثوا إلينا عن "مذهبهم" الفاصلة..

وعلى الرغم من أن معظم تلك الأحاديث وتلك المدن، يمثل معامرات فكرية، نعت فيها الحيان ببراءة مُفرطة إلا أنها ونحن نلونها نجس احتراماً أكيداً لها.. لماذا؟..

لأنها تستمد مادتها من معالم تطورها، ويتضمن سياقها المرح إحساساً صادقاً وجاداً بمشاكلنا..

وعلى العكس من هذا.. نجد كتاباً يكتبون عن الواقع

الذى يعيشه، ويصورونه مشهداً مشهداً ..

ومع ذلك تحسّى كتابتهم هازلة، صُحْلة، قليلة
الجدوى.. ذلك لأنهم غير صادقين فى شعورهم بما يكتبون. بل
غير صادقين فى إيمانهم بأنفسهم كسلغين عن الحقيقة، وسفراء
لها بين الناس .

وهنا يواجهنا سؤال:

- من الذى يمسك بالميراث، ويميز التفكير الصادق من
التفكير الكاذب اهارل ..^٩
ربحيب ..

به الإنسان نفسه . والإنسان وحده ..

الإنسان المتمثل فى الإرادة الكريمة لوعيه، وتموت
وفصائلها وهو على صعيد واقعنا القريب، الرأى العام فى
أعلى بقاى تطوره وصعوده ﴿فأما الرّتذ فيذهبُ جُفَاءً وأما ما
ينفعُ الناسَ فيمكثُ فى الأرض﴾ ..

إن تحرير المعكر والكاتب، والفنان من وطأة الواهى،
صرورى لبلوغ الكمال الميسور .

وابوعسى الأدبى والسى، هو خير هاد يهذى الكاتب
والصبا إلى سواء السبيل. وليس من حفا أن نقول لأحدهما

أو كليهما "كح" ..

فرطيفة كل مهما "الحق"، ومهمة كل منهما أن يكشف
لنا عن الحاس احسن، في هذا الذي سراه رديشاً أى أن
يكشف احسن اكامن، فى القبح للمائل ..

وهذا يتطلب منه أن يعرض الصورة كلها، قبيحها.
وجميلها. بل إنه كلما ركر على القبح ارداد بقصة تألقاً وبهاء
إنما يطلب من الكاتب والقصا أن تكون أعراضهما
الأدبية والفنية صاعدة ..

أى أن يدلنا كل مهما على ما يمكن أن يكون، من
خلال تصويره لهذا الذى هو كائن ..

وهذا ليس قبدأ تعرضه على حريتهما.. بل كشف عن
مستوية هذه الخربة، وهى مسئولية تتسق مع الحرية لأنها ذبعة
من صميم العمل الأدبى والفنى، ومن طبيعته .

وقبل أن نعاد هذه النقطة من الحديث، نود أن نؤكد أنه
لاشئ يهدى لى هى أحسن، وىث المصائل لىاعة هى النفس
بناً عظيماً مثل الثقافة إذا مارجت طفولتها وبدأت معها من
مهدىها .

إن لثقافته فوه أخلافة، لاعلمية وحسب.. وإن لنتمع بها

كفوه أخلاقية كلف بدأت به مكرين. أى إذا ملأنا وعى
الطفل بروح الثقافة وروح المعرفة وذات يقتضى أن تتوحى
ماهج التربية السبل الآتية .

* أن يدرك طفل أبا لأعلمه، وأما نقدم إسه خبرتنا .

* وأما لانشحكم فيه، وأما نُشير عليه ..

* وأنه إذا كنت لما عليه حقوق، فهي ليست على حرته .

بل على علاقاتنا المشتركة لآخر .

* وأما تعاونه لكي يصير "إنساناً" لا مجرد فرد . أى أن تتجلى

الشخصية الإنسانية فيه بكل نبوغها واستقامتها . وتفوقها تجلياً
كاملاً .

* وعليها أن تَمَيَّ حاسة الحمال في نفسه، فتدرب تكون

حاسة الحمال نامية وناضجة، يكون ملك للعظمة، وجنوحا عرس

الإسفاف . وعدشد لا يرى الكذب دبلوماسية ولا الكبر

اعتداد . ولا السرقة ربحاً . ولا السؤم براعة . ولا الأدبية

تساماً . ولا يرى الحب مجرد روفة . ولا المرأة مجرد صحيفة .

* ويبغى أن يحبه لخصر، والنهي ما استطاع . إن كلمه

"لا تفعل" تَهَبُ الطفل نشاطاً سلباً . ولكن "افعل" تروصه على

النشاط الايجابي المعال . مدلاًس أن تقول له: لا تكذب .. لقل له

قل الصدق

أجل، لجعل أساس ثقافته الأخلاقية "افعل" بدلاً من
"لا تفعل" ولحذر أن يقرها جافة عبيطة . بل لتكسب من الخير
أن تفعل

هذا تروحت الثقافة هذه سبيل، وعمرها بها أطفالاً، وليس
هناك شيء سواها يربأ أسماي الفضائل، وأعظم الأخلاق

وكما أن الثقافة ترفض كل خطر أخلاقي عيب، فهي
أيضاً، ومن باب أولى، ترفض كل خطر آخر.. ولقد أدرك ذلك
كثيرون من المفكرين الكبار، وإذا كانت سياسة تمثّل أكثر
ما تمثّل في الدولة كطدم، فقد دفعتهم لغيرة الشديدة على
الفكر وعلى الثقافة إلى مهاجمتها، والنهش سهايتها
أعني "هويسمان" أن وظيفة الدولة إعداد ليس لمباشرة
أعمالهم بدورها ..

واعتبرها - بيتشه - "وحتّ جريئاً في تكذب واسرفه كل
ما تقره تكذب فيه، وكل ما تمسكه تسرقه" .

ووصفها - تولستوى - بأنها "الحاد مُلّاك" .. !

وتعجّل - ماكوي - مهايتها، فتباً بأنه في عام "١٩٠٠"

ستلقى الدولة مصرعها وتفقد كل دواعي قيامها ..

وحتى في التحلiza المحافظة ارتفعت أصوات مفكرين
وكتاب مادية بتصفية الدولة بكل مظماتها، وتحريك مجلس
العموم والبيوربات إلى "مخارن لسماء" !!..

والحق أن إمعان لدوة في تركيد سبطانها من جانب،
والصراع السياسي بين دولة وأخرى من جانب آخر، قد سببا
للمكر الإنساني، وللثقافة من المتاعب، وألحقا بها من الأذى
والضرر ما يحل عن لوصف.. وكان هذا الأذى يلع أعلى
مناسيه دوما في عصور الطلام، ولا عطاء ..

ولكن الفكر رغم ذلك كله حقق جميع انتصاراته، وقال
كل ما كان يريد أن يقوله . وهو اليوم في عصور الرشد
والحصارة. أكثر قدرة على تحقيق ذات، وإدعه كلماته . وإد
فتوفير الجهود الماثلة له هو وحده العمل الحكيم .

ذلك أن تعطيل فكرة لاتعطيلها وحدها بل تعطيل معها
أفكاراً كثيرة كانت ستتولد منها ..

إن بذرة "المانجو" تحمل في باطنها آلاف الأشجار، بل نخمس
عدداً لايتهى من أشجار المانجو .

كذلك الأفكار ورؤى العقل، تحمل كل منها أعداد

لا تنتهى من الأفكار والرؤى وخلق فكرة واحدة، يعنى حق
عدد لا ينتهى من الأفكار، وكما سُئِنُ جميعاً هواء واحداً،
فثقافتنا نحن بنى الانسان واحدة ..

صحيح أما نأخذ هواء البقي، وبأى عن الفاسد الأس ..
وعلى الثقافة سيكون لنا نفس السلوك، لكن ليس من حق أحداً
م أن يحتكر لسه الحكم على الثقافه وتميز بعضها من فاسدها.
إنما الفكر الأساسى ينفذ ذاته، ويبقى حشه.. وقياس فكرة
فى وجه فكرة أخرى. هو الذى يعبر طُوبِ لثقافة من حيثها.
وليس ثمة فكره نستطيع أن نعرض نفسها على المستقبل، ونحجُر
عليه، ونجمع مبلاد تنكسر جديد، وأيضاً من باب أولى، ليس من
حق انسياسة ذلك وهى لا تملك قط تعقيم الفكر لاساسى ولا
تقدر على ذلك حتى حين تريد ..

قيل، أن الإسكندر رار ذات يوم الفيلسوف "ديوجينز"
وسأله فى تواضع وأدب :

أليس بسدى الفيلسوف ما يأمر به، ويكون لى شرف
تميده ..؟

وأجابه الفيلسوف الراهب الكبير :

- نعم لى حاجة واحدة . أن تتحجى بعداً حتى لا تحجب

عنى ضوء الشمس . !!

إن عبارة "ديوجينر" هذه، هي كلمة الإنسان لكل مسطبان
يُريد أن يقترب منه ولو بالعمى والرُّقى ..

- نَحْ بعيداً، حتى لا تحجب ضوء الحقيقة

فرهة انعكس أثمن مقوماته، وهي تقتضي الشئ عن كل
بعرء، والتعوق على كل رة، وتقتضي أسس للفكر،
والعزوف عن كل ما قد يحرف به عن رسالته العظمى .

ولقد كانت أحصص أيام الفكر الإنساني وأعظمها، تلك
التي اتخذ فيها من عقول الأناة وأفتدنيهم مؤثلاً ومُقدِّمًا، وسى
كان فيها يمثل مركز احاديثه لكن ماحوله، فلا يسعى لسمو
والسلاطين بل هم الذين يسعون إليه . لم تكن شخصية.
المفكر "محتفى"، لأحد مكانها شخصية "الوصولي" بل كان جلال
الموهبة يعلأ بغير أسس التفكير، فلا يبقى هناك مصمم يستطيع أن
يفتنهم، ولقد تصاعل أمام شيعهم العقلي والروحي كل ما في
الدينا من متاع، وهرب أمام فكرهم الصامد كل ما فيهم من
بعض .

هذا هو المستوى العالي الذي تعبر عنه كلمة "ديوجينر"
والذي يعبر عنه كذلك قول المفكر الإسلامي لكبير الإمام

الشاعري :

أما إن عشتُ لست أُعدم قوتاً وإذا متُ لست أُعدم قبر
وعلام أدلّ لساس نفسي وعلام أخاف ريداً وعمر
لك، ليس الخطر الأخلاقي، وليس الخطر السياسي، هو
وحدده، القوة التي تُنازئ أسكر وتحدى الثقافة.. هناك
أيضاً - الخطر الاجتماعي ..

و نحن نعي بالخطر الاجتماعي قوة التقاليد، والتقليد... إن
للتقاليد ضرورتها وفيتها، فهي لقوابل نتي بعض خلاصا
مرحلة النمو والتطور ساس ولكن كما كذلك مشبه
ومصارفها ونشأ ما فيها أنه نمرى بالتقديا السبي الذي يعطى
قوى الخلق والابتكار .

والثقافة تعنى - دائماً - الشخصى والمحاورة وكل بقية
جديدة لها تنصم خير ما فى سابقتهأ فهي إدل لانهدم التقاليد
تجديدها وابتكارها، وإما نخوها وتطورها .

إن كل طور جديد من أحوار الثقافة، يبدأ بأن يتلقى خير
ما قبله، ثم يستوعبه ويمصى به فى انصلاق جديد وهذه
العملية الدائمة تمارسها الثقافة بوسائنها دون ما حاجة إلى
تدخل ما أو من أية قوة خارجة عنها سوى قوة الإنسان

المبتدئة في حركة تاريخية .

وإذا نحن حاولنا أن نعرف .

لماذا باحت حقيقة الجاذبية بسرّها لإسحق نيوتن ؟

لماذا تكشّفت كروية الأرض وحركتها ككوكب يمس

وحاليليو ؟.

لماذا تبدّت نظرية أصل الأنواع لداروين ؟

ولماذا بزغت فكرتها من قبل هي وعى من مسكرية ؟؟

لماذا تفتحت آفاق الفلسفة لآمن باجه، وبين رشد، وأرس

سيما، والمارابي ؟.

لماذا نزع جابر بن حيان في الكيمياء، وكان من كبار

رؤاها ؟.

لماذا سلس علم انفلك قبة للبّاسي، وأسي الوفاء

البورجاني، وعبد الرحمن بن يونس ؟؟.

سرى وراء كل هذه العبقريات تفوقاً على التقاليد،

وعلى التقليد، فالعصر التي تجتّ بها تلك العبقريات كانت

محافضة في تفكيرها، وكانت ترى في هذه المخاللات صروباً

متعسّفة من التجديف والمروق، ولو أن أولئك الأفئدة وحسوا،

واستكاثوا، لما قدّر لهم أن يؤدوا الأدوار الكبرى التي أدوها

بن، لو أن المسيح نفسه، وقف عند تقاليد فومه
ومعتقداتهم دون أن يتخطاها ..

ولو وقف الرسول عند تقاليد الذين يخشون للأصنام
سُجداً - لما كانت المسيحية، ولا كان الإسلام ..

فالثقافة - دد - لكي تزدى وظيفتها يجب أن تتحرر من
كل تعية للتعايد، وهي بتحررها هذا لن تكون كالثور في
متحف الحرف . ولن تبت الألعام المهلكة في أرض التقاليد
القائمة .. فيبين الثقافة والتقاليد روابط تاريخية، تحمل كلاهما
يعطى الآخر ، يأخذ منه .. وإنما ستهدم الثقافة من التقاليد كل
ما «سنفذ وجوده وبقائه، ويجب أن تمكن من هذا لأنه من
مقتضيات تطور الحياة الإنسانية كلها..

حين تسيطر التقاليد على الثقافة تتحول - أعنى الثقافة -
إلى مجرد تقيد، وترديد، وجترار وتأخذ طابعاً محلياً صفاً
عظيماً.. وتُفَرِّق عموماً كثيرة أهميها العصب المحموم لها..
وعندئذ يصح "كث الحقيقة" هو المضيئة التي يشرها الذكاء
وتفتضيها المسيرة .

وإنا لنعم أن شرّ ألوان الاستبداد، هو "ستداد الكلمة" ..
وإن بضع كلمات، كت تقول "الأرض مسطحة" ظلت

تستعبد البشر أحقاباً تلر أحقاب، حتى إذا اشقت الصوف
المدعمة عن بصعة أفداد أرادوا أن يحاوروا الصباب إلى مطالع
اصواء.. هتت التقاليد في وجودهم باطشة فائكة، فسجنت،
وشقنت، وأحرقت .

إن الثقافة من عمل الإنسان ولا بد لها من محاورة التقليد
إلى الابتكار، والمحلة إلى الشمول فذلك من صميم طبيعتها
وحيث يوجد إنسان فثم وطنها. ليس هذا وطن خاص
ولاجسسية خاصة ..

فالثقافة الماركسية السائدة في روسيا وفي الصين وفي
كثير من بقاع الأرض - اكتشفها عقل أناني ..
وبصريات ابن الحشم في مصر. واكتشافات أبي بكر
الرارى في الطب والكيمياء و نظريات ابن رشد والفرايى وابن
سينا في الفلسفة هي التي علّمت أوروبا، ولا تزال تقتعد مكاباً
جدرياً في ثقافة أوروبا السامقة ..

كما أخذ علماء لعرب وفلاسفتهم هؤلاء، عن الثقافة
ابونابية، التي تلقّت هي الأخرى عن الثقافة المصرية .
فالمحبة والتقليد، دحبلان على الثقافة، وهي ترفضهما
بقدر ما تسعى إلى لانتشار والاشكار وحين تتأثر ثقافة بأخرى،

فهى لى الواقع لاتقدها إلا إدا وقمت عندها، وأخذتها بطريقة
القل الحرفى، وشَفَّ لَصُورٌ.. وهذا شئى غير ممكن حتى لو
أراده الناس.. لأن طبيعة الثقافة تقودها. وضعتنا هم. الاستيعاب
والتحويل واحترق

وكن ثقافة تتأثر بأخرى فى هذه الحدود.. والإيمان بهذا
صرورى لناس كى يفرروا الجهود العنصرية التى يفتقونها عشا
صد لثقافة .

إن إحيل بعاصمة الثقافة بحمص على العصب اندميم
والخوف الأهوج العصب لثقافة ما، والخوف من ثقافة أخرى.
كما أن صراوة لعنصرية، وعادة اسطن، حين يكون هد
الاسطن مكرراً بعض نتائج هذا الجهل. وهما يشكلاان خطر
على الثقافة جدّ عظيم

فحين حين يؤمن بثقافة ما، و بعنصرية ما، إيمان العوام -
فإن هذا الإيمان يدفع عالماً، أو دائماً إلى الاستحقاق عما عدا
هذه الثقافة . وهذه العنصرية .

والدبر تسترقبهم وتبعدهم عنصرية فرد، كثير ما
يُحرّمون الاتّباع بعنصريات الدين بناهصوه .

وكما يحدث هذا للأفراد، يحدث للأمم والجماعات..
ولذا فإن مآصنا العظيمة، هو عبقرية الإنسان
وعبقريته الإنسان لا يملكها واحد، ولا مائة، ولا ألف.
لا تملكها أمة.. ولا جيل.. ولا عصر.. إنما يملكها النوع كله،
ومجلى ظهورها جميع الرمان، وجميع الناس ..
والثقافة ليست معرفة وحسب، بل هي كذلك يعود ..
ويعودنا يتسع بقدر ما يكون معنا من ثقافة. كما أن كل
إعمالٍ لثقافة، وإعراض عن فكرة، ومساهمة لمعرفة، يعنى نقصاً
كبيراً فى نفودنا !!..

والثقافة تحرير، لاستعداد ..!
وهي بهذه المثابة تدعونا لأن نتعلم من جميع المعلمين، ثم
سير وحدنا دون أن نكون طلالاً للاحرين بمجرد طلال ..
وهذا وجبنا نحن بى الإنسان فى كل زمان، وفي كل
مكان. أن نتعلم من جميع المعلمين دون أن نفقد فى عمار
عظمتهم استقلالنا الفكرى، ودون أن ننحول إلى مآلات تائبة
أو على حد تعبير "امرسون"^(١)

"اشكروا الله على هؤلاء الرجال الأخيار.."

(١) كتاب (مختارات من امرسون)

"ولكن، ليقُل كل مكم: أنا كذلك إنسان .."

هذا هو الامتبار العظيم الذى تقدمه الثقافة لنا، وتُعبئة
عباءاتها لنسجحه بفسطاط مستقيم لجميع الذين يسعون إليه
ويريدونه . جمع الذين يعمون أن الحقيقة ليست ملكاً لأحد،
ولاملكاً لجماعة . ولا ملكاً لعصر . جمع الذين يهربون من
الرق حتى حين يكون اسرقاق الكلمة صادقة نفسها .

وهذا الامتبار كدسك، هو الحد الفاصل بين امتنا ..
والتعليم ..

إن التعميم يُؤسس لما الثقافة فتعس سيادتها، وتؤكد تعرف
على كل عوامل التنعية والخصوع ..

وحين تتمتع جمع لذين اكتشفوا القوانين الطبيعية،
وقوانين المجتمع، وجمع الذين تقرب من عصور الجهانة إلى
عصور السور والعلم، عدهم جميعاً ويعير استثناء من
لمنتقلين . أعنى من الذين جاوروا التعميم إلى الثقافة .. جاوزوا
الاطلاع إلى الاشياء وأحقق جاوروا عبادة البطل المفكر إلى
اكتشاف البطل بى أنفسهم وفى دواتهم ومواهبهم ..

أجل . لشكر الله على جميع المعلمين والرؤاد، ولكر
لفسح صفوحها لأحرير وآخرين فإن معجزات الإنسان

لامنتهى لها ..

إن شرُّ ما يصنع هو أن نحمل المفكرين على نكث آرائهم
لمجرد أنها لا تتسق وآراء آخرين من الأطوار الشائعة،
واعقريات الفذة أو لأنها لا تتفق والعُرف السائد والمعرفة
القائمة، فكأى من أفكار بلدها الناس ذات يوم وحاربوها
وتكروا بأصحابها.. ثم إذا بها تفرض فيما بعد نفسها، ويتبين
العقل الإنساني أنها حقنق، وقوايين، ومُسلّمات .

ومن الذى أوتى الحكمة كلها..؟؟ لأحد ولذى بض أنه
وعنى جميع الحقيقة، إنما يحبل الحقيقة جهلاً كبيراً .
ولقد عرَّ عن هذا المعنى تعبيراً سديداً، العالم الكبير -
لاجرانج - حين جعل شعاره :

"لا أعرف" ... !!

وأيضاً عبّر عنه العالم المرمي "ليتز" حين قال^(١).
"لدى الكثير من الآراء التى ربما تكون دت "
"فائدة يوماً ما، عندما يُقيض الله آخرين من هم"
"أدكى منى؛ فيمحصولها حصاً عميقاً، ويصبون جمال"
"عقولهم بمجهودات عقلى .."

(١) كتاب "رجال الرياضة"

كذلك عبّر عنه "نيوتن" في قوله للماثور
"إد كنت قد رأيت أبعد قبلاً من رآه الآخرون فما لهذا
سبب إلا أنني كنت أقف على أكتافهم..."
وقوله الحكيم :

"لأدرى كيف ينظر إلى العالم، ولكي أتراهي"
"لنفسى كما لو كنت علامةً يسهو عني شاطئ البحر"
"وأسلى نفسي بين الحين والحين بالعثور على حصاة"
"أكثر ملاسة، أو صفة أكثر جمالاً، فيما محيط"
"الحقيقة العظيم يعتد أسمى، دون أن أعرف عنه شيئاً..."

فانتقل كل ثقافة كلمتها، ولتخرج جُء تفكيرها، وتُدِرْغ
بين العالمين فلسفتها وآراءها... فليس على صهر الأرض سلطة
أعنى من سلطة الفكر تستطيع أن ترغم لها حق التحكم
فيه وحق توجيهه.

والكلمة . هي الفكر منطوقاً، أو مسطوراً .
وصلغت آية الإنجيل .. "في البدء كان الكلمة" ..
فتأخذ الكلمة كل حقها في الذبوع والانطلاق.. وكل
حقها في أن تظل جليبة عريضة، فلا سقف في استعمالها، ولا

توسل بها لتحريف الحق، وتمجيد الكذب .

ولبدع «ثقافة حرة طليقة، إلامر الصواب التي تصعبها
هي نفسها وتُرحب بكل ثقافة تثير الدعر في نفوسنا، لأب
دليل على أن هذه الأنفس حوقاً مُدلاً، يحب أن يرحل ..
وبكل ثقافة تثير الشك في أنفسنا، لأنها توقظ إرادة
ابقين لديها، وترودها بالبصيرة والعينه

وبكل ثقافة تسمع حشرة الأتباع المنهوية داخل
تفكيرنا المُدبر، لأنها تشر ميلاد جديد لوعينا
وبكل ثقافة تنحني أفكارنا وآراءنا، لأنها منكشف غر
ربها إذا كانت رائقة أو ترصد إيماناً بها وإسرارها عليها إذ
كانت صادقة

وكلما جعلنا شعرنا نحن البشر - "ثقافة بعير قيود" .

فلصع هدا، صادق

ولتق بالعكر الاساسي لعظم، ونمص معه، فإنه بتقديم
نا فوق الحوق، وفوق السلام ..

التَّحْدِيدُ وَالْاِخْتِصَارُ

هاك قصة تُروى ..

وربما تكون قد وقعت بداتها، وربما لم تقع، ولكن
مفهومها يكرر في صور لا تحصى، ويُمثل مأزق البشرية كلها
استأجر أحد الناس رجلاً شديداً القُوَى لقطع بعض
الأشجار .وعند الغروب، دهش إذ وجدته قد أبحر في يوم
واحد ما كان يتطلب أربعة أيام ..

وفي اليوم الثاني كلفه أن يصف الأخشاب ويرصّها،
وأبحر لرجل عمله هذا في وقت جدّ وجيز ..

وفي اليوم الثالث عهد إليه التاجر بكومة كبيرة من
البطاطس، وكلفه أن يهرزها. وقال له: أما الفاسدة، فابدها.
ثم ضع الحملة هنا .والأقلّ جودة هاك ..

وفي آخر اليوم جاءه، وكم كانت دهشة حين ألقاه لم
يُنجز من العمل إلا أقلّة ..

وسأله: ماذا دهاك.. وماذا هذا البطء الشديد...؟؟ فأجابه
الرجل:- "إن الصعوبة التي أجدها في الاختيار والتمييز بينها،
تكاد تقضى " !!...

إني لأذكر دوماً هذه القصة، كلما ترعى لي سعي الناس
في الحياة .

وأذكر معها في نفس اللحظة، ونفس السبب، كلمات
الفيلسوف "سأتايانا" :

"بست الصعوبة الكبرى في الحياة أن نختار بين الخير "

"والشر.. بل أن نختار بين الخير ، والخير .. "

هذه هي مأساتنا.. وفي نفس الوقت هي عظمتنا .

أجل، وهذا مارقا العظيم !!..

الاختيار بين الخير والأجود... بين الحسن، والأحسن،

وبس يد مارقا من هذا من عملية الاختيار ذاتها بل يد

قلا من التحديد الدكي للأشياء، تحديد الحسن، والأحسن،

وتحديد الردى الذي سيئله جانباً...

التحديد ... والاختيار ...؟؟

بالحماس كمتين حقيقتين على المسار، ثقيلين في سيران !

فهما معراج الحياة البشرية كلها وبسبب مهما تمت

جميع خطواتنا الطاهرة إلى الأمام .

ولكن كيف نحدد، وكيف نختار ؟؟

لقد كان سيلنا لهذا، ولا يزال - "الحيرة والتفكير" ...

واخيرة هما، لا تعنى مجرد برهة ممتعة؛ إنما تعنى الكدح

والمعاناة وكما يقول "جون ديوى"^(١)

"لكي تختبر شيئاً ما، فالدى يحدث أنك تؤثر فيه،"

"ثم تتلقى نتائج فعلك، تأثيراً مماثلاً يتعكس عينا من"

"الشيء ذاته .."

أى أن الخبرة ليست مجرد مراوطة العمل، بل هى معاناة
العمل بكل تجربته وخطئه. ثم هى الألم، أو الشوق الذى يربط
كس منهما بالتجربة، ويظل مرتبطاً بذكرها .

وهكذا، فالخبرة هى حقيقتها ليست مجرد اكتشاف شيء
ما، وإنما هى اكتشاف أنفسنا داخل هذا الشيء، واكتشاف
روابطنا به، واكتشاف جميع العلاقات التى يعمل داخلها ذلك
الشيء نفسه .

وهذا، هو العمل الصعب للتفكير فالتفكير بدوره لا يعنى
إدراك المجردات .. لا يعنى الأشياء معرولة عن علاقاتها . وإنما
يعنى إدراك العلاقات وتمييزها .

يعنى اكتشاف الروابط بين أعمالنا وعواقبها.. يعنى
الإحساس بمشكلة. ثم ملاحظتها بكل ما تطوى عليه
الملاحظة من شك وحيرة ثم من حزن وتأويل ، ثم من فحص

^(١) كتاب "الديمقراطية والتربية"

وكشف وتحيل ..

ويعنى أخيراً - المعرفة .

وعندما نعرف، يتسنى لنا أن نحدد، ونختار.. وهكذا تسدو
المعرفة ولها قيمة ثانوية لاغير ...

أما القيمة الأساسية حقاً، فهي لعمية المعرفة... هي خبرتنا
المنطوية على التجربة والخطأ والمعاناة.. ذلك أن هذه العملية
لا تثمر المعرفة الصحيحة بحسب.. بل وتثمرت أنفسنا، وتصهر
كل ملكاتنا، ومراهبنا.. كما نواصل عن طريقها تنمية جوهرنا
واستعدادنا

فالس الذين يتلقون "معارف جاهزة"، ليسوا كالأخرين
الذين اكتشفوا هذه المعارف، وعاشوا حقيقتها. والطفل الذي تعلم
شفهاً، أن التيار الكهربى يصعق، لن يكون أكثر حياءً، من
الطفل الذى عاش التجربة نفسها. وكاد التار دت يوم يصعقه
وحين تَقل لوحة بطريقى 'اشف' تكون أن تعاني - على
الأقن - عمسة رسمها ومحاكتها؛ فأنك لاتكون قد أثبت أمراً
مذكوراً ..

فالمعرفة الحققة - إذن - هي أن تُعاني تجربة هذه المعرفة..
والاخبار الحق، والحرية الحققة، هما أن تعاني تجربتهما..

قدرون معاناة تجربة المعرفة - لامعرفة ...
 ويلبسون معاناة تجربة الحرية - لاجرية ...
 أى أن التجربة والخطأ بالنسبة لشيء ما، هما سبيل
 وجوده، هما من صميم جوهره وحقيقته ...
 فالكمال المطلق فى حياتنا البشرية غير موجود - أما
 الموجود فعلا فهو الكمال الميسور .
 والذين يريدون "معرفة" بغير خطأ ..
 "عُدُولاً" بغير مَبَل ..
 و"حرية" بغير إساعة ..
 و"فصيلة" .. بغير نزوة .. جدُّ واهمين ..
 وكما أن وجود الخطأ، لا يبرر عدم "الفعل" فوجوده يُبْصَرُ،
 لا يبرر "سَلْب الحق" .
 ومن حقوق الإنسان المقدسة ، أن يختار
 ووتنوع الخطأ فى اختياره، لا يمكن أن يسلبه حق فى
 الاختيار !
 سيما والخطأ من صميم تجربته .. والتجربة هى كل شيء
 فى تفكيره، وفى مصيره ..
 من هذه البديهة، بدأ الحديث عن قيمة "الاختيار" فى حياة

الإسنان ونحن لا نعرض الاختيار ذلث العرض الفلسفى السطرى،
الذى يبحث ويسأل: هل الإسنان مُحير، أم مختار...؟ كلا...
ليس هذا موضوع حديثنا بحال ..

إنما نتحدث عى الاختيار، كضرورة إنسانية. وحقيقة
تاريخية درست عملها ونجم عنها كل ما فى حياة الإسنان من
تقهقر وارتقاء ...

* * *

الإسنان الذى قسا به بدأ حياته كإسنان، وهو مُرَوِّد
بتصورات هائلة، ومنظر عسى تجارب مهمة لا تنتهى لها.
والذى صادف فى حياته الإنسانية حشود متساقدة متتابعة من
الأحداث والتجارب يسى أصعب عيه من أن يختار..
ولكن أقداره حين باطت حياته بالاختبار... وحين
أحطت الاختيار بكل هذه الصعوبة، وتلك المعاناة... قد أرادت
أن تشعره، وتغلأ رُوعه بأن الحياة جد لاهزال. وأنها ليست
منتدى يحتمى السهو سُمَرُه. إنما هى عمل دائم لا يقر قرأه..
إن بطل القصة السالفة اتى بدأنا بها حديثا هدا، يمشى
موقفنا جميع من الاختيار ..

فلقد كان الرجل بُدأ، عارم القوة، شديد العَبْ... يقتنع

الأشجار، ويرص كتل الخشب، وكأَنَّ العمل الشاق يس يدبه
ذُنْبُهُ يتلهى بها ويتسلَّى... لكنه لم يكد مجلس إلى "كرومة"
الطاطس، حتى ضعف وبان عجزه .

لم تصرعه 'حيات' .. الطاطس الصعيقة الرخوة... وإِذَا
صناه ويلل خاطره، عجزه عن التميز بينهما. ولقد كان دكِّ
حصيماً ذلك الشاعر الذي قال :

دوا بعقل بشقى في العيم بعقله وأحز الجهالة هي الجهالة يعلم
غير أن هذه الشقوة بالعقل، من أجل مرايا الإنسان
وأعظم فرص تقدمه وسعادته

والإنسان لم يكتشف نفسه تماماً، إلا حين واجه هذا
المأرق العظيم في حياته حين سمع بدء بارئه المتعال يُحلجل
في أعماقه أن تقدم . قد سحتك كل أسباب التصوُّق. فأرني
الآن، كيف تصنع ..

والاختيار في مدلوله العميم، يتمثل في موقف واحد، هو
اختيار الإنسان مصيره .

ولقد اختار الإنسان مصيره فعلاً، ويتحص في هذه الكيمات:
• أن يسود أرضه

• أن يسود عالمه ..

• أن يسود نفسه ..

هد هو المصير الذى اختاره لآسان وشدَّ إليه أرحال
والسيادة هنا، لاتعنى سوى التفوق المستمر .
ونقد رأيا كيف ساد الأرض فعلاً وجعلها وطناً ماسماً
وعظيماً له ..

ورأيا كيف ساد عالمه بكل علاقاته الطبيعية والبشرية ..
وإنما يأخذنا الشك فى أنه ساد نفسه ...
بيد أنه من الإنصاف للإنسان، أن نعترف له بالسيادة
على نفسه أيضاً. ولن يُعجز الشمس مطاهر هذه السيادة غير
نارجه وتطوره .

ونحن فى حقيقة أمرنا، لانسريز فى تفوقنا الروحي
هذا، إلا بدافع الإدراك السديد لقيمة هد انفوق، وإلا بدافع
الرغبة البينة فى التطهر بالتردد منه .

هذه السادة ادن سيادة الإنسان عالمه، وأرضه، ونفسه،
هى العرص لذى يتمثل فيه مصيره الذى اختاره ..

وثورات العنم ضد الجمود والعجز، وثورات الشعوب
ضد الملوكة المستبدين، لم تكن تعنى إلا أن الإنسان يمارس

اختياره وأن البشرية تقرر مصيرها .

صحيح أنه مَرَقَ من صفوف البشرية من قاوموا مجيوشهم
وأساطيلهم حتى تقرير المصير لكثير من الأمم المسالمة، واشتد عوب
الوديعة المنادية بحقها

نكرُ تشبث الإنسان بحقه في اختيار مصيره الحر، وتشبثه
ببلوغ هذا المصير، كان - ولا يزال - يدفع قوى الشر أمامه
كالكرة . وكانت الكتلة البشرية - ولا تزال - تثبت أنها، على حد
تعبير جيفرسون، "لم تُؤَدَّ بسروح على ظهورها". وهكذا رأينا،
ونرى، كيف تُحقق الإنسانية كل يوم انتصاراً عظيماً يقترب بها
من مصايرها العظيمة الراحدة..

كان عاندى - وهو بطوف قري الهد ليجمع السس
حول دعوته، ويشير فيهم الإصرار بوديعة على نيل حقهم، وأخذ
حريتهم - يقول لهم :

"لم يستول الانجيز على لهد فتحن الذين أعطياهم يياها"

"وسحصل على الاستقلال عنلما نعلم كيف محكم"

"أنفسنا ، إدن فالأمر لنا...."

الأمر لنا . .

هذه العبارة الموجزة كل الإيجاز، هي الطاقة الهائلة التي

انتصر بها غاندى، وانتصرت بها أمته ..

أجل، هى، لا مجرد أنها عبدة. بل بوصفها عقيدة آمن بها
غاندى، وعلم شعبه أن يؤمن بها ..

بها تمثل القوى السحرية المحبوعة فى التحديد والاختيار،
حين يتصممان إرادة تنفيدهما

وهذه العبارة نفسها "الأمر لب . هى القوة اسافة انسى
سار بها الإنسان مخزقا الخو جر متخطبا العقبات ..

لم يكن الإنسان يلو كها بلسانه، ولا يحصها بسنه ثم
يتمطى ويام من كان يمارسها، ويعيشها، ويحيها

وإن أروع آيات الإنسان حقاً هى أنه عاش دائماً هذا
المدأ "الأمر لب" وهو لم يعيش متدحاً به ولا متلهياً، بل جاداً،
ومعانياً، ومكابداً .

فكفى يكون الأمر له يجب أن يستمتع بأهبة راشدة تمكنه
من حيازة الأمور. وهذه الأهلية لاتأع فيشترتها، ولاتترك
بالخطوط البائمة وإنما بشخذا كل ما آتاه الله من موهبة وقدره،
ولقد فعل، وعن طريق التجربة والتجربة وحدها مصى يُبشر
جُهد البيل الخليل، باباً نفسه، مكتشفاً دوره، مختاراً مصيره

ومد كان بسكى العابة والكروخ، إلى اليوم اندى تُطبق فيه

صور ربحه نحو الكوكب العُلى، تُشبهها بقرب قدومه ...
من ذلك اليوم ليعيد مُهَيَّي البعد، حتى 'يامه' التى يعيشها
الآن وهو يُجَاهِدُ بعزمه الحُسُور مشكلات صحمه تدوئه، وتريد
أن تدحض حقه، وتقف مسيرد ولكنَّ إيمده بأن الأمر به، كان
يُمرع فى دكانه من التوفيق، وفى يديه من القوة ما يجعل الصعب
سهلاً، والخطر متعة، والمستحيل ممكناً

ولقد حذيق الإنسان هذا السرس، وأجدد حمل سعاته .
وأكثر أماء جسسه ونوعه تفوقاً فى الحصاد هم - دائماً -
الذين حذقوا معه ذلك الدرس العظيم ..

هم الذين يتواصلون بفتح اشترك بينهم، مؤمير بأن
الأمر لهم، وبأن مسئولية مسئوليتهم، وبأن المصير مصيرهم .
هم الذين بقدرهم على أن يُحدثوا...وعلى أن يحاروا.
وعلى أن يعضوا، ويُسحرو

ومس الصريق الذى سلكه الإنسان لُشْنِي "مشيئته
المختارة" هو الذى لامعدٍ عه لكل جماعة، بسانية تريد اللحاق
بمركب الإنسان أعنى الخبرة، والتفكير ..

أعنى مُعَاوَاة التجربة مُعَاوَاة كَمَلَة، وإدراك مدلولها إدراكاً
صادقاً.. واختيار الموقف الذى توحى به التجربة والادراك.

وهى تقرير المصائر البشرية جميعها - السياسية، والعلمية،
والاجتماعية، يجب أو يسعى أن يكون هذا هو السبيل ...

ويجب، أو يسعى ألا يكون اخطأ سبأ فى التدخل عر
التبعة بحال ..

وما دما - نحن البشر - نختار حياتنا، ونختار مصيرنا، فلا
بد أن تكون مادة الاحترار بين أيدينا.. وأن يكون معنا من
الطمأنينة القدر، الذى يسمح لنا بالتصرف وبالمناقشة .
أى لابد أن نعرف كل شئ عن حياتنا، وكل شئ عن
مصيرنا .

وحياتنا، هى عقائدا، ومؤسَّسات .

هى تجارنا، وكعالمنا ..

هى آلامنا، وآمالنا ..

هى لهوُّنا، وجدُّنا ..

وبعبارة واحدة، هى كل صُروب نشاطنا الإنسانى
ومصيرنا، هو الطريق القويم الذى نتحقق عليه أعراض
وجودنا

فكفى بنظم هذه الحياة، التى هى حياتنا .

وبكى ستفيل دالك المصير، الذى هو مصيرنا، يعنى أن
يُوضع كل شئ يتعلق بهما بين أسيّنا ، وتحت أعتنا، وتفكيرنا،
واختيارنا ..

إن حرية الاختيار تمثل اليوم فى حياة البشر "مركز
السهم".

- ولكن كانت كذلك فى كل وقت، إلا أنها اليوم أكثر،
وأخطر فقديمًا، كإن اختيار جماعة ما، أو أمة ما، يُؤثر فى حياتها
أولاً، وبالذات. ثم لانشغل هذا الأثر إلى المجتمعات الأخرى
النائية إلا بعد زمن طويل يقتضيه بُعد الشُّقّة، وبسيرة وسائل
الاتصال وعثر هذه برحمة الشاقة الطويلة. بكون الأثر قد
تقطعت أنفاسه، وتبددت وطأته .

فما اليوم، فآثر التفكير والاحترار تتقل سرعة الضوء،
مع وسائل شتى قهرت الأبعاد والمسافات .

أجل، تتقل مع المدياع، واسينما، والصحافة، والكتاب.
وحيث يختار شعب "رقصة" ممجة لنفسه، بصر هذه الرقصة
داتها، وبعد بضعة أيام من احتراعها واختيارها، تملأ أركان
الأرض وتسوى بها أجسام الملايين فى معظم البلاد والشعوب
فالاختيار فى عصرنا هذا لم يُعدّ تخلياً. بل هو عالمى

واسع المطاق - ومن أجل هذا تعظم تبعاته، وتكثُر مسؤولياته .
إليه يُعرض عبي الناس في كل الأرض. أن يفكروا طويلا
قبل أن يختاروا. وأن يعلموا أنهم لا يختارون لأنفسهم وحدها،
ولا بأنفسهم وحدها.. وإنما يختارون للعالم كله، ويختارون أيضا
بتأثير من مراح العالم كله، وهذا يقتضى أن يكونوا وهم
يختارون، على أكبر حط من الوعي ومن القدرة على الاختيار .
وكل شعب من شعوب كوكبا هذا، مدعو لمعاينة تجربة
التحديد والاختيار، مهما تكس تكاليفها ومشقاتها وإلا وُضع
بمنه مختاراً تحت الوصاية.. وسبب بشرية كنهها نقصاً في
نفوذها - ذلك أن البصيرة الإنسانية هو ثمرة الإرادة.. والإرادة
الإنسانية تشكلها إرادات الرُّشد التاريخي والجماعي لكل أمم
الأرض وشعوب الإنسان .

واختيار كل أمة لنفسها، لس معنى التصُّح، وانتشئت،
والفرقة بين أساء عالمنا الواحد. فالتطور الإنساني يعنى نفسه
تماما. وعن إدغمى في مساره، إنما يستهدى بوعيه، وتأثر به،
وينادينا بحاله المعنطيسى، فنلبي بدائه ..

وكلما اتسع تطورا هذا لمريد من الوعي، ومن الفكر،
ومن الثقافة - كثرت نقاط الالتقاء والجمع بين الجماعات

الإنسانية كلها ويتم التجمع بين جماعات قوية واعية باهضة،
حر تكون جميعاً قد مرّت بتجربة الاختيار، وكوّنت لنفسها
تلك الشخصية الخرة المستقلة النامية التي يثمرها الاختيار .
وهكذا يتجلّى ظهور لإنسان فيها على نسق باهر عظيم

وكما نادينا في الفصل السابق عمداً "الثقافة الكافة"
سادى ها عمداً "الاختيار للكافة" .

لقد قسنا: إن عصر "الثقافة للصورة" قد انتهى.. أو بدأ
بتهى، وعليه أن نُعجل سبابته ..

ونقول إن عصر "الاختيار للصورة" يواجه نفس المصير
ويسعى أن يرحله

والكناس، كالفيلسوف في الميزان ..

ولا يسعى أن يعطى عقرياً حق الاختيار، ثم يحرم أباه
الذى كان حطاً، أو من عمار اساس.. فهذا الأب المعصور، هو
الذى حمل في صُته ولده العقري أو العظيم، وهو الذى أوصل
إليه ميراث العقريّة، ومنحه وجوده .

ثم إن الاختيار، ليس عملاً من أعمال استرف والصَّنْف
حتى يكون وفقاً على الخاص، بل إن له وطبيعة أسمى وأجلّ،

ورظيفته هذه تجعل أمر تعممه واجباً مفروضاً. فوظيفة الاختيار
الحقة هي :

أولاً: ترشيد الوعي الإنساني .

ثانياً: الكشف عن الإرادة الكلية للجماعة الإنسانية
لنعرض أما دعونا سكان الكرة لأرضيه جميعاً للاشتراك
في استفتاء حر، نبي عن طريقه رأيهم في الحرب وفي السلام..
ولنعرض أنهم جميعاً، أو معظمهم رخصوا بالحرب، ورأوا
فيها علاجاً لآلام الحرب الباردة، وحرب الأعصاب القائمة
بين هذا الرأي - لاريب - فاجعة وبلاء. لكن الكشف عنه
عمل عظيم ..

فهذا الكشف دتب على 'إرادة كلية' الناس لم يكونوا
يعلمونها وهذه "الإرادة الكلية" تشكل خطراً داهماً. هي وإن تلت
يوماً في حالة كمور، فإنها في يوم آخر تنس عن نفسها لاجئاً
وإذن نفس الخير العظيم أن يعرفها، ويكتشفها وتتبع
مآلاتها، وتلوي رماها ..

والإرادة الكلية حين تنكشف وتبدئ، تأمن عثارها مهما
يكس الخطأ الكامل فيها، لأن وجهه الرأي السديد سرعان ما
تجند نفسها لتقويم العوج، وإحكام الاتجاه

و لو عى الإنسانى لا يعقد أبداً، من يصع أصعبه عسى
 مصباح حقيقة فبصيته له، حتى لو يكون طعن "هاس
 أندرسون" الذى كشف عُرى الامبراطور، وقصص "ساجى
 صاحب الحلالة" وردّ للجُمُوع الحاسة المحدوعة شجاعتها
 وعقبتها، حين صاح بها إيا الامبراطور عُرياناً فإذا الناس
 يُقل بعضهم على بعض بتهامسون، ثم يتصيحون: "أجل إيه
 عُريان، إيه لُعريان" ١١.

وإذا كان تبيّن الإرادة لكبة لسان حتم، حتى حين تمثل
 هذه الإرادة خطأً وخطئاً، فكم نكور حتمته، والإرادة لكبة
 حين عميم.؟؟

أجل، إيا الإرادة الكلية لئشّر لا تجتمع على صلاته، لأنها
 جُماع ما فى الشربة من دكاء، ووعى، ورعة فى الفوق،
 وإصرار على اسهوس وعن فى حقيقة لئسا بكثير حاجة إلى
 تبيّن وجهتها ومقصدها، فوجهتها معروفة بالسببة وهى
 المحورة الدائمة، ونحطّى الحس إلى الأحسن باستمرار.

لكن ما عن بحاجة إلى سببه دائماً، هو الطريق، والوسائل
 التى تتوسّل بها هذه الإرادة لسرع وجهتها، وتحقيق عرصتها
 فالوسيلة مربة ومنعيرة، ولكن عسر وسائله الماييسه،

وَنُطْمِه وَمَنَاجِيهِ، وَمُؤَسَّسَاتِهِ الْمَلَاتِمَةُ ..

وهنا نلجأ إلى أخيراً المسيح للاختيار .

وهنا كذلك أنجنى الحقيقى لإرادة الإنسان

كان القديس "أوغسطين" حين يُسأل عن سر الرمان يجيب .

"إنى أعرف الرمان إذا لم يسألنى عنه أحد ."

"أما حين أحاول تفسيره للسائل فأنى أحبه ..."

ولقد بقى الاختيار كمشكلة فلسفية، يتخذ فى الأدهان

صورة كصورة الرمان فى دهن أرغطين ..

حدث هذا، ولا يربى يحدث عندما ساقش 'الاختيار' من

حيث صلته بالتصاىء والقدر .

أما حين نطرحه - كما قلنا من قبل - باعتباره ضرورة

إنسانية عيباً، أن نحقق بنسها لى العالم الخارجى، وباعتبار

حقيقة تاريخية تسدّى سافره واصحة فى حركة الإنسانية كنها،

صغيرها وكبيرها، فحسب يكون موقفاً المفكراً منه واصحاً،

ولا يجهل من حقيقته، ولا من دورها شيئاً ..

إن قصة الحياة كلها، هى قصة لاختيار الإنسان، فى

حريته الخالقة ..

ويعمل . .

. لأن يسع الكتاب ثمنه، وتُشرف هذه الصفحات

على عايتها فهل فرع حديثي عن الإنسان ٢٢٠

إذا كان تصوُّري لعظمته، والمستقبه، سيُصيرُ عني أن يثقل
نفسه، ويُعزِّر عنها في صحائف مكتوبة، فما أكثر ما أحتاج -
إذن - إلى كُتب تروى هذا التصور العَدَق المفيض ..

على أبي سعيد بعممة الله عليّ في هذه العجاجة التي
صمَّتها علاقتي بالإنسان ..

وسوف أطلن أذكر هذا الذي أسته الله من الأرض سائاً،
ثم سوَّده عسها، واستخلفه فيها . سوف أطلّ أذكر له كدحه،
وشمائه، وأخطئه، أكثر مما أذكر به فوره، وماضجه، ودكائه.
أى أنه من حيث يتشاءم كثيرون، وبفصُّون عن الإنسان
في جرْع أليم، سأبشر أنا شراع بهاؤلي، وأقل على لإنسان في
ثقة سابغة، وفي ولاء كريم !!..

ذلك أني - فيما أحسب - قد عرفت ما هو .. وأدركت
من فداحة عسها، وثقل حمله، وجسامة مسعاه، وعظمة ذوره ما
محمي البقيس العذب بسل خطايه، وجلال مراياه، ويؤمن أياه،
ومحذ رمانه.

وأحسب أن هذا واجتنا جميعاً نحو الإنسان، أفراداً،

وجماعات وأممًا ..

ينبغي أن نشق بالإنسان، ونطمش إلى مصيره، وينبغي أن يكون جهادنا - دائماً - مرتبطاً بجهاده ومتمم له. وأن نتحرر مشيئته ونعمل وفقها .

لقد قرأنا كثيراً عن تاريخ الإنسان. ووقف عمده صوباً .

أيسعى لهذه الوقعة أن تدوم ؟؟

كلا، وإنما واجنا أن نتقدم بسهم في ماء هذا التاريخ بعربة أقوى، وثقة أتم، وولاء أكثر

ودلك يقتضى أن يأخذ كل مكان بين الصفوف الراحمة.

ويدفع كل كيانه الصغير داخل الكيان الكبير .

علنا أن نقل الإنسان إلى حباتنا، وعملاً برؤاه وبإصراره وعليها أن نعمل من أجل مستقبله ومصيره، وكأنا نصر هذا المستقل وذاك المصير .

وبقدر ما تحمل عرائنا من تفاؤل، سيكون جمال كفاحنا، وستكون عضيمته .

لشئ تماماً، أن هذه الأرض لن تشهد يوماً ماء جنارة الإنسان ..

فالإنسان الذي قضى ملايين السنين في أحضان التطور

لكي يطلع الرُّشد الذي يبدأ به رحلته الحاذقة الصاعدة، ليرقص
بحه حين يدق ساعة رُشده وتبدأ بشائر عصوره. ولقد دبت
الساعة وأهلت الشائر ..

ولو لم يبق من البشر سوى ألف أو مائة، فسيعمل
الإنسان داخل هذا الألف، أو هذه المائة .

وإذا لم يبق من نوعه إلا عشرة، فسيعمل مع هذه العشرة
وإذا لم يبق إلا واحد، فسيبدأ ببناء عالمه الجديد بهذا
الواحد

وإذا بقي هذا الواحد أيضاً، فسيكمن الإنسان داخل
'أميبا' يهرب به من القاء، ويموت من داخلها نفسه مرة
أخرى، وينشر وجوده وحياته ورسائله من جديد
لنؤمن بهذا جيداً .

ولنتق بأن خلقة الله هداً، سيبلى من أمره ما يريد .

كتب المؤلف

- ١- من هنا . . . نبأ .
- ٢- مواطنون . . . لا رعابا .
- ٣- الديمقراطية ، أبداً . . .
- ٤- اللحن للشعب .
- ٥- هذا . . . أو الطوفان .
- ٦- لكي لا تخزنوا في البحر .
- ٧- لله ، والحرية (ثلاثة أجزاء)
- ٨- معاً على الطريق محمد والمسيح
- ٩- إله الإنسان .
- ١٠- أفكار في النعمة .
- ١١- نحن البشر .
- ١٢- إنسيات محمد .
- ١٣- الوصايا العشر .
- ١٤- بين يدي عمر .
- ١٥- في البدء كان الكلمة .
- ١٦- كما تحدث القرآن .
- ١٧- وجاء أبو بكر .
- ١٨- مع الفيلسوف الإنساني في سره وسيره .
- ١٩- كما تحدثت الرسول (مجلد) .
- ٢٠- أزمة الحرية في عالمنا .
- ٢١- رجال حول الرسول (مجلد) .
- ٢٢- في رحاب علي .
- ٢٣- وداعاً .. عثمان .
- ٢٤- أبناء الرسول في كربلاء .
- ٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز
- ٢٦- عشرة أيام في حياة الرسول .
- ٢٧- . . . والموعود الله .
- ٢٨- خلفاء الرسول (مجلد) .
- ٢٩- الدولة في الإسلام .
- ٣٠- دفاع عن الديمقراطية .
- ٣١- فسنى مع الحياة .
- ٣٢- لو شهدت حوارهم لقلت . . .
- ٣٣- إلى كلمة سواء (تحت الطبع)
- ٣٤- الإسلام يتحدى البشر

تطلب كتب المؤلف من دار المقتطم للنشر والتوزيع

رقم الايداع ٨٨٢٦ / ٩٧

الترقيم I.S.B.N

5 - 08 - 5732 - 977

النداء للشباب

* هذا الكتاب ليس قصيدة
تحكى أجداد الإنسان وتُردد
مفاخرة..

* هذا الكتاب جهد متواضع،
يتقدم على استحياء بين الجهود
الكبار العاملة من أجل اكتشاف
الإنسان .. اكتشاف حقيقته،
واكتشاف مشيئته .. واكتشاف
الفرص الواجب توفرها له كي
يلعب كماله الميسور، ويدرك
مجده القادم..

خالد محمد خالد

